

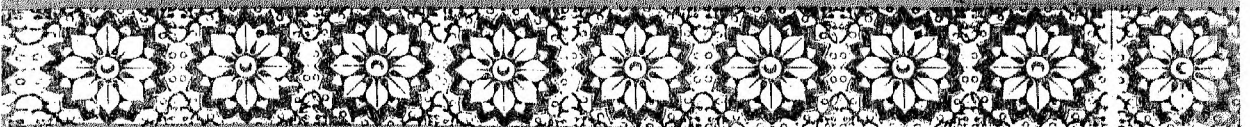
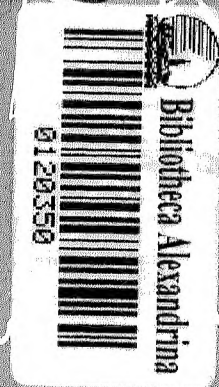
وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

في الربوع الأندلسية

رامي البالي

ملاحظات
٢٣



في الربوع الإندلسية

وَزَارَةُ الشَّافَةِ وَالْإِشْرَافَةِ وَالْهُدَى

بَدَلَةُ الْبَالِغَةِ وَالْإِشْرَافَةِ

في الرَّبُوعِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ

بِسْمِ الْيُفُفِ

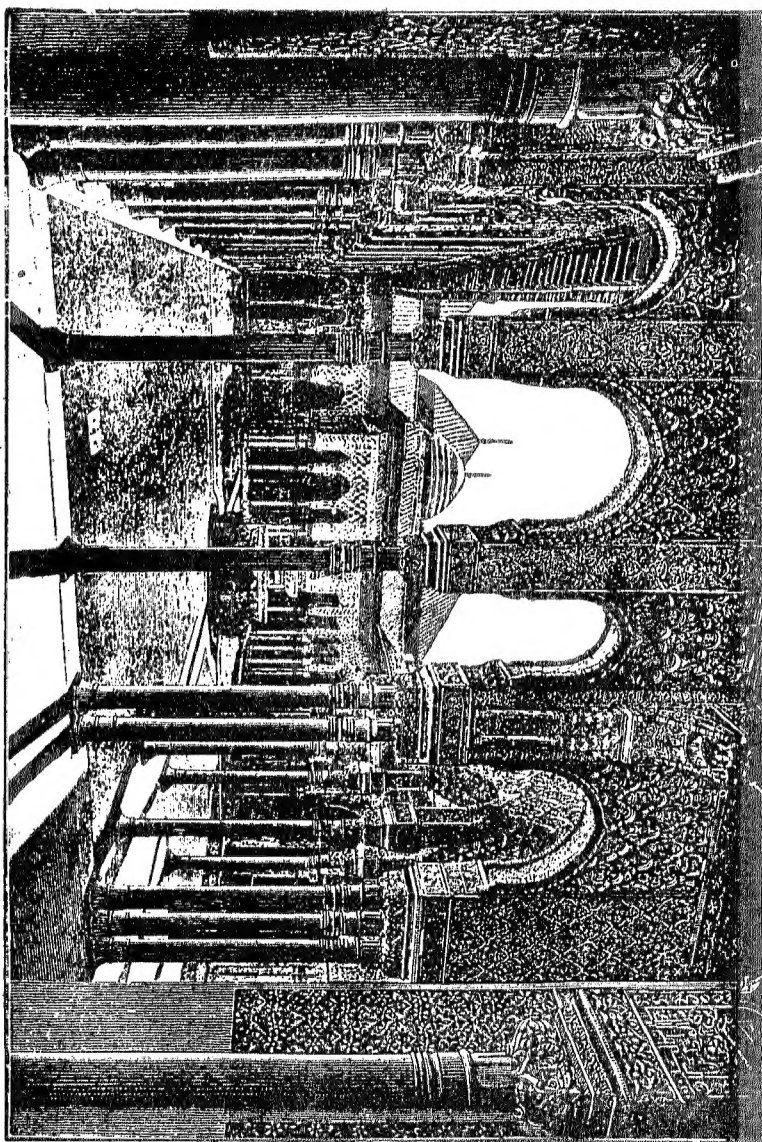
سَيَامِي الْكِيَالِي

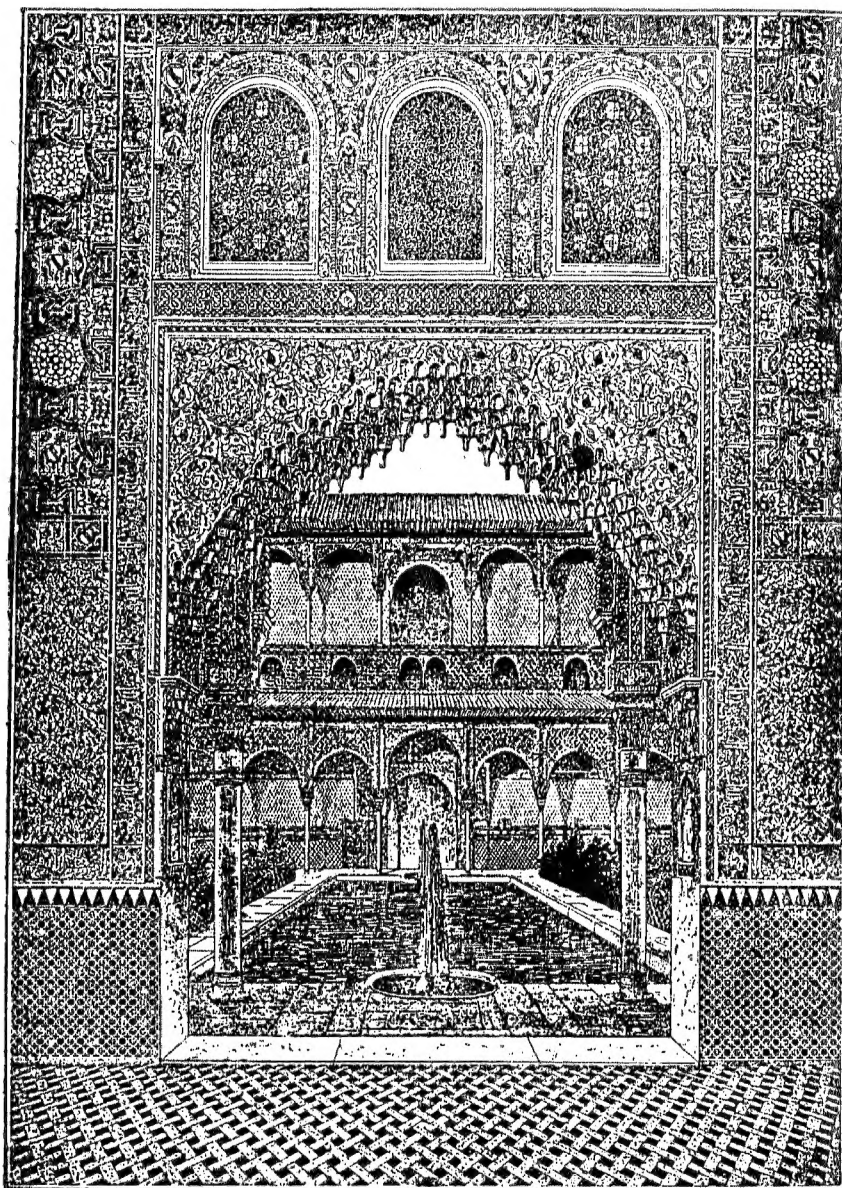
حَلَب - ١٩٦٣

سلسلة الرسائل
٣

مَكْتَبَةُ الْبَشْرِفِ
حَلَب - سوريّة . ص.ب : ٤١٥

قاعة الاسوار في قصر الحمراء





قاعة البركة في قصر الحمراء

في الربوع الهنسية

لم تكن اسبانيا لتجتذبي الي ربوعها لولا الأندلس ، بلاد المجد المفقود
- لولا الذكريات الأليمة التي تشيرنا نحن العرب ، ونلمس على وهجها تلك الأضواء
التي لم تستطع الأيام أن تخدم شعلتها والتي رمز الى ازهى حضارة أبدعها العرب في
تلك الربوع .

نعم ، لم تكن اسبانيا لتجتذبي الى مفاتها لولا تلك الأجداد التي أشاد
صروحها الأجداد وأضاعها عث الأحفاد . .

لقد قام البناء الأول ، اولئك الأبطال المغامرون ، ففتحوا أرض الأندلس
بعد أن سفكوا دماءهم السخية ، وباعوا نفوسهم الزكية زخيسة في سبيل
أقدس رسالة آمنوا بها فأستطاعوا في فترة من الزمن ، أن يخلقوا دنيا من المفاخر
والمآثر . .

ولكن اصطراع الاحفاد في سبيل الغايات الخسيسة ، وتكالب الامراء
على شهوة الحكم ، واقتناهم لاجل رئاسات خاوية ، هو الذي أضاع من أيدينا تلك
الجنان المزدهرة والفراديس الجميلة المنصوصرة التي ترمز الى عبقرية العرب في
الخلق والابداع ، تلك العبقرية التي انتجت لدينا المعرفة الانسانية أدباً وحكمة

وفلسفة وفناً ، وأبدعت حضارة مخضلة الألوان لا تزال آثارها بالرغم من تقادم الزمن — تزهو بروبقها الى الآن فتجذب اليها رجالا الفكر من شتى أقطار الدنيا ، أدباء وعلماء وفنانين ومن لهم مشاركة بهذه الفنون ، فيقفون ازاء رائعها حائرين مشدوهين ..

ولإنه لبدهي أن تجذب تلك الحضارة التي ترمز الى ماضي العرب المشرق ومجدهم الأثيل والتي ترينا ألواناً زاخرة من إبداعهم في الفنون وترفعهم في أنماط الحياة — بدعي أن تجذب أمثالنا ولا سيما الذين قضوا شطراً من حياتهم الفكرية بقراءة الادب الأندلسي والاستمتاع برقته وجزائته وفيض حيويته وبديع صورته وتلاوته .

ولقد فكرت بزيارة الأندلس مراراً .. ولكن لم تيسر لي الاسباب ، ولم تسمح لي الظروف ..

وجاءت رحلتي الى الولايات المتحدة وسيلة لتحقيق هذه الأمنية التي طالما حثت إليها النفس حينئذ ملحاً .. وأي حين ؟ فما كدت أعزم العودة الى أرض الوطن .. حتى جعلت الحج إلى الأندلس فريضة كالفروض المقدسة .

ولإنها لفريضة في شرعة المؤرخ والأديب ، فلم أكد أصل الى باريس ، بعد عودتي من نيويورك وأمكث فيها بضعة أيام أقضي فيها بعض ليلاتي ، وأستعيد بعض ذكرياتي ، نعم ، لم أكد أقضي فترة في باريس حتى قصدت مدريد على متن طائرة من طائرات « الايرفرانس » فوصلت اليها ظهراً في الرابع من شهر شباط سنة ١٩٥٤ ..

ولم أكد أنزل من الطائرة وأدخل بهو المطار حتى وجدتي في رعاية مفوضيتنا ، وسرعان ما تم الاجراءات الجركية وتأشيرة الأمن العام .

وبعد لحظات كنا في قلب مدريد ، في فندق بلاتزا ، وهو من الفنادق الحديثة الكبرى حيث حجزت لي غرفة قبل وصولي بأيام .

بعد أن وضعت أمتعتي وتناولت غذائي نزلت الى المدينة أتعرف الى

وجه مدريد ، أو مجريط كما كان يسميها العرب ، ولا أعلم من أين جاءت هذه التسمية ؟ .

إن مدريد كأكثر عواصم أوروبا فيها الكثير من مظاهر الحياة ، وبالرغم من وفرة هذه المظاهر تبدو أقل عنفاً من باريس ..

وهي بمظهرها الديني أقرب إلى روما ، وقد تفوقها في هذا المضمار ، نعم ، قد تفوق مدريد عاصمة الكتلكة ، ومقر الفاتيكان في الكثير من مظاهرها الدينية .. فأنت حيث تسير في جواردها وشوارعها ومنشطاتها تواجهك الكنائس والأديرة والكاتدرائيات .. وقد لا تسمع من أبراجها غير قرع النواقيس ، حتى ليخيل اليك ، لأول وهلة ، أنك تعيش في جوٍّ مفعم بروح الدين .. ولكن الواقع غير ذلك .

فبالرغم من الطابع الديني الذي يغمرها ، فهي مدينة ذات حيوية مسكرة .. تلعب ذلك عند سكانها الذين يحسون من الأعماق نزعة الاستمتاع بالحياة ، إحساساً قوياً . وقد ترن* في أذنك وأنت تتحدث إلى المديدي هذه النبرات الموسيقية التي تعبّر عن أنسه وبهجته .. عن مرحه وفيض حيويته .. وحيثما سرت ، ولا سيما في هذا الشارع الممتد بين متحف برادو وساحة كاستيلانا - شافزه ليزه مدريد - والذي يحلو لبعضهم أن يسميه شارع الغرام ، أو طريق الفزل - أقول حيثما سرت في هذا الشارع تواجه الفاتنات وقد ملأن الأرضة جيئة وذهابا . وترى المقاصف والمقاهي تنصّ بالرواد الذين يغمروا وجوعهم . يتحدثون ويهزجون ، يمزحون ويتندرون ، ويمرّ بهم الوقت ، كما يمرّ بنا ، في أشياء تافهة ليست بذات بال ..

إن الأسباني لا يريد أن يرهق نفسه بالعمل ، لا يريد أن يكون آلة تدور إنه يعمل ولكن في هذه الحدود التي تفرضها طبيعة العمل ونظام الحياة .. ثم تصبو نفسه إلى الاستمتاع بأجمل ما في الحياة من متع .. يحاول ما استطاع أن ينعتق من القيود والتقاليد إلى حياة اللهو والمرح ، يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل في جوٍّ مرح ليفيق في العاشرة ، وقد يباشر عمله في الحادية عشرة ..

وإذ ألمع الى هذه الظاهرة أشير الى الحياة المترفة التي يعيشها البورجوازيون الذين يؤمنون ايماناً مطلقاً بالفلسفة الأبيقورية .. ولا أجرد الكادحين من هذه الحياة أيضاً .. ول هؤلاء أيضاً نصيبهم من حياة المتعة والسرور في نطاق أوسع من بيئاتهم الشعبية حيث يجدون ألواناً مختلفة من حياة الحب والمجون . تخفف عنهم بعض أعباء الحياة وأثقالها .

وتكاد تكون فلسفة المتعة التي لاقت هوى من نفوس الاسبانين هي شعارهم جميعاً .. ويقولون ما دام يمر الانسان هذا المرور السريع من هذه الدنيا ، عليه ، قبل رقدته الأخيرة ، أن يستمتع بجمال الحياة وأطايها على أوسع مدى ..

لأنهم لا يفكرون بالموت ويروونه حادثاً طبيعياً ، يجب على الانسان ألا يخافه ، والآن يفكر بأمره .. بل عليه أن يعب من رحيق الحياة أجمل ما فيها قبل أن يقرصنا الزمن بمقراضيه ذوي الشقين الحاديين .

وبعد فلا أريد أن استرسل في وصف الحياة الاسبانية ولما اندمج في صميمها هذا الاندماج الذي يجعل لهذه الخواطر التي أنثرها قوة اليقين . فقد أكون متسرعاً في حكمي ، ولا سيما ولما اقض فيها غير فترة قصيرة ، ولا تمكثني هذه الفترة أن أعطي حكماً صادقاً على منازع هذه الحياة .

ولكن هذا هو الانطباع الذي لمست من زيارتي الاولى .. وكل ما أستطيع أن أقوله عن هذه المدينة الجميلة أنها مزيج من الشرق والغرب . أي من روحانية الشرق ومادية الغرب .

أخذت من الشرق صفاء واثراقة ، ومن الغرب ملامح من عنفه وماديته ، فكان لها من هاتين الظاهرتين حياة أميل الى الاستمتاع والتأمل منها الى الكد والجهد والعمل .

لم تطل إقامتي في مدريد لأنها لم تكن المقصودة من هذه الزيارة ، وأخذت أعد أهيتي لزيارة الاندلس .. ولهذا لم يتيسر لي أن أغوص الى أعماقها .. أن أرور كنائسها ، وكاتدرائياتها ، آثارها ومتاحفها ، حدائقها ومنزهاتها ،

قصورها التاريخية وعماراتها الحديثة ، ومعاهدها الثقافية وجامعتها الكبرى -
كانت جولة عامة في أطراف المدينة ، في قلبها الزاخر ، بمجموع الناس ، في
المشارب والمقاصف .. وهي مدينة تغري زائرها أن يمكث فيها أياماً وأسابيع ،
ولني لأرجو أن أقضي منها لباتي بعد عودتي من زيارة الأندلس ، فردوسنا
الحبيب المفقود .

الاندلس

« الاندلس » كلمة عذبة ولفظة ذات جرس وإيقاع ، تنزل من نفس العربي منزلة النغم الحلو من أذن الموسيقار .

وبلاد الاندلس اسم لمقاطعة كبيرة من اسبانيا فتحها العرب في القرن الأول الهجري وظلوا فيها ثمانية قرون نشروا خلالها مدنية وحضارة لا تزال آثارها باقية الى الآن .. ثم تخلّوا عنها مرغمين فكانت قصة ذات بداية ونهاية . تعددت فصولها ومشاهدها - بداية مشرقة تحمل في اطوائها العزة والمجد والكرامة ، ونهاية قاتمة تثير في النفس الألم والحسرة والدموع .

من مغامرة فذة تحمل ثورة الايمان لنشر رسالة الى استخذاء وتكالب على أعراض زائلة ..

من النغم المسكر الى البكاء والويل

وبالرغم من هذه النهاية المحزنة فما يزال العربي في ثورة هائجة من الحنين لزيارة ذلك الفردوس الجميل الذي أضاعته الشهوات وعبثت به الالهواء والاحقاد ..

نعم ، ان قصة فتح العرب للاندلس من قصص البطولة الخالدة في تاريخ الامم وتاريخ الحضارات - قصة تحمل في اطوائها الحرب والمجد ، الادب والحضارة ،

العلم والفن ، الرقص والموسيقى ، ترف العيش وبلهنية الحياة ، الدسائس والمؤامرات . . وكل ما في الطبيعة البشرية من نوازع الحياة - خيرها وشرها ، جمالها وقبحها ، إيمانها وضلالها ، فجرها المشرق وليلها المظلم الطويل .

ولن نكتب في هذه الرسالة ، هذه القصة وقد كتب عنها مئات الكتب وآلاف الرسائل والبحوث ولا يزال المجال متسعاً ، بل نريد من هذه الرسالة ان نسجل بعض انطباعات هذه الزيارة ، نريد ان نرسم . بكلمات شعورية صادقة ، بعض المحجسات التي مست شغاف القلب وحنايا الصدر فهزّت النفس وأثارت الدموع . . وفي اعتقادي ، ان قصة تاريخ الاندلس بدىء بكتابها منذ الآن . . فقد أخذ بعض الباحثين يعيدون النظر في أكثر ما كتب عن الاندلس - باحثوا العرب والافرنج على السواء . . واننا لنقرأ كل يوم بحثاً جديداً يكشف لنا عن أبهى مظاهر هذه الحضارة - يكشف عنها مستشرقون منصفون أخذوا يعكفون على تلاوة الوثائق والمستندات التي تحتفظ بها المعاهد الاسبانية - وقد كان الدكتور طه حسين - عميد الادب العربي ، أول من التفت الى هذه الناحية ، اي الى دراسة الحضارة الاندلسية من جديد . . وسرعان ما حقق فكرته ، حين كان وزيراً للمعارف ، بتأسيس « المعهد المصري » للدراسات الاسلامية بمديره ، وهو معهد جعل أم غاياته اقامة حلقة عربية في اسبانيا الحديثة لدراسة الحضارة الاسلامية الاندلسية دراسة موضوعية .

وفي اعتقادي ان تاريخ الاندلس ، أو تاريخ العرب في الاندلس سيكتب من جديد حيث تبدو حضارة العرب أكثر إشعاعاً مما عرفناه من الدراسات الماضية . . وقد كانت الى الآن دراسات عاطفية أكثر منها علمية .

اطلق كتاب العرب اسم الاندلس على شبه جزيرة « ايبيريا » المكونة من دولتي اسبانيا والبرتغال الحاليين . وكان اطلاقهم هذا الاسم بطريق التخليب ، والواقع ان الاندلس هو اقليم في جنوب اسبانيا . وتقول بعض الروايات ان العرب اخذوا اسم الاندلس من اسم سكانها

الاصليين الفانداليين Vandalis فقالوا فانداليسا او فاندالوزيا Vandalitia واطلقوا عليها اسم الجزيرة ، كما قلنا . وذلك من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس .

وفي الاسبانية اندلوثيا Andalucia ، وهي في الاصل فندالوثيا سميت بذلك من الفنداليه ، وهي أمة نزلتها في القرن الخامس للميلاد . وقد ذكر القرطبي انها سميت بذلك باسم اول من سكنها على قديم الزمن ، وهم قوم من الاعاجم يقال لهم اندلوش (١) .

وذكر ابن الاثير ان النصراني يسمون الاندلس « اشبان » باسم اشبانس احد ملوكها وهذا هو اسمها عند بطليموس ، وذكر دانييل ان الاشتقاق مأخوذ من كلمة « فاندالوسيا » أي بلد الوندال (٢) .

والجمال لا يتسع لسرد الكثير من النصوص والروايات فحسبنا هذا الاملاص وهو الملاح يرمز الى ان الاندلس هو القسم الجنوبي من بلاد اسبانيا . وقد وصف الادباء والشعراء والمؤرخون جمال أرضها ووفرة حداثتها وكثرة كرومها واعتدال هوائها ، وخصوبة أرضها وعذوبة مياهها ، وهو وحده يؤلف الكثير من المجلدات .

هل اصرف النظر عن زيارة غرناطة واشبيلية وقزطبة والطوائف بجثة العريف والخرج الى قصر الحمراء . . نعم ، تنازعتني هذه العوامل بعد أن رأيت السماء تمطر ثلجاً وتنذر بالمواصف وقد حذرني بعضهم من وعورة الطريق والتصعيد في الجبل وهي مغمورة بالثلوج ، وظللت فترة بين اليأس والرجاء ، بين الاقدام والاحجام ، ثم قلت أأصل الى المورد العذب ولا أبل ربيحي بجرعة ماء بعد هذا الغلما الطويل . ثم أي لون من الحزن يثيرني حين أعود الى الوطن ولم تكتحل عيني بمرأى فردوسنا المفقود وقد أصبحت منه قاب قوسين او ادنى كما يقول العرب القدماء ..

(١) فتح الطيب ج ١ ص ٦٧

(٢) كتاب ممالك أوروبا ص ؟

وصممت على السفر . . وقلت لا بد من تضيحية بالوقت وبالراحة . .
 واخذت انظّم برنامج هذه الرحلة ، وفي مدريد عدة شركات للنقل
 تقوم بنقل سواح العالم لمشاهدة الاندلس ، واتصلت بأ كبر هذه الشركات ،
 وقطعت تذكرة السفر ، ودفعت قرابة خمسة آلاف ييزيتا لرحلة تدوم اسبوعاً ،
 وفي الصباح ركبت سيارة البولمان التي أعدها شركة « مليا » واخذت طريقي
 الى غرناطة ، مع رهط غير قليل من سواح الاميريكان والانكليز ، والكنديين ،
 وكذت العربي الوحيد بين هذا الركب لزيارة مناطق المجد المفقود .

في الطريق إلى غرناطة

٤ شباط ١٩٥٤

أي ثورة من الفرح تملككتني حين اعتزمت السفر الى الاندلس
كانت غرناطة بدء الرحلة ، و لغرناطة مسكانتها في تاريخ الاندلس .
وعلى مسرحها مثلث مثلث الروايات .
عرفت المجد والزهو والسلطة والكبرياء ، ثم كان سلاطينها بقية ملوك
العرب في الاندلس فكانت المأساة ..

تركنا مدريد في العاشرة صباحاً وقد احلها الثلج الى حلّة ييضاء واخذنا
طريقنا الى غرناطة . . وهي تبعد اربعمائة كيلو متر عن مدريد والطريق اليها
معبدة .. ولم يعد الشتاء ، يبرده ومطره ، وجليده وثلوجه ورياحه وعواصفه لم
يعد الشتاء ليعيق المسافرين عن السفر ما دامت ادوات الركوب اصبحت سهلة
هينة .. ولا سيما وسياراتنا البولمان قدجهزت بكل وسائل التدفئة والراحة ..

لقد بدت الارض الاسبانية ، ذات المزارع الواسعة - بدت تنكشف لنا
بعد ان ابتعدنا عن العاصمة . . وكلمنا اتجهنا الى الجنوب . . أي كلما اقتربنا من
الاراضي الاندلسية ازددنا حنواً وحباً لهذه الارض التي تطوي رفات الاجداد ..
وقد كان يزيد في ثورة هذا الحب ما نراه من مظاهر الحياة وكأننا في بلاد الشام ..

فهذه القرى التي مررنا بها قريبة الشبه بالقرى الشامية فالفلاح الاسباني لا يزال يفلح ارضه بنفس الطريقة التي يفلح بها القروي ارضه في بلاد الشام . وانك لتري هذا الحقل وقد اقيم على طرفه دولاب الماء . وهو لا يزال يعتمد على الدابة في فلاحه الارض ولا يتردد ان يعتمد « التراكاتور » ، كما هو الحال عندنا ، اذا توفر له المال . وهذا راع قد سار خلف الماشية وهو يهزج باغان ريفية وقد اعتمد شباته كما يفعل الرعاة عندنا تماما . وهي اغان تمت بصلة وثقى الى اغاني الرعاة ، وقد يعني « الموت » وهو على ظهر حمارة . وهذه العجلات التي تنقل الخضار والمحاصيل الزراعية هي التي نراها في طريقنا من القرى الى المدن . من دوما الى دمشق ومن الباب الى حلب .. وهؤلاء القرويات وقد عدت من العين يحملن الجرار على رؤوسهن ويتحدثن هذه الاحاديث الساذجة التي تتصل بحياة القرية . الاحاديث التي تتصل بالحب والمغامرات . هذه بعض المظاهر التي تراها في الريف الاسباني وانت في طريقك الى غرناطة .. وهي مظاهر تراها قريبة الشبه مما نراه في الريف السوري حين ننتقل من بلد الى بلد — من الشمال الى الجنوب مثلا .

كانت السماء لا تزال متجممة الافق حتى اذا ابتعدنا عن مدريد واتخذنا الى الجنوب اخذ ينكشف الجو .

نحن في دوس باربوس Dos barrios قرية السكاتب الاسباني الشهير سرفاتي . صاحب دون كيخوتي — القصة الانسانية الشهيرة ، وقد ذكرتني طواحين الهواء في هذه القرية والتي لا تزال كما كانت قبل ثلاثمائة سنة . ذكرتني بأبطال قصته وهزئه المرث بهم . بأبطال الفروسية الذين كانوا يعيشون في عالم الوهم ..

بعد ثلاث ساعات من مغادرتنا مدريد ، وكان النهار قد انتصف . تناولنا غداءنا في قرية مانزايرست .. وهي مشهورة بتقديم الذئبة الروحية . ثم والينا السير .. وقد اطل علينا الربيع بهذا الثبت السندسي الحقيقي الذي غطى السهول .. وبالرغم من أن الثلوج لا تزال تغطي الطريق فقد كانت السيارة تسير سرعة لا يلوها شيء حتى حين أخذنا نصعد جبال الاندلس — هذه الجبال الخضراء

المرتفعة ذات التعاريج الجميلة التي تطل مرتفعاتها على الأودية الظليلة .
لقد بدأنا نتحسس جمال الطبيعة في هذه المنطقة السحرية .. فحيثما اتجه نظر
الانسان يرتسم الطبيعة في هذه الجبال المحضورة ..
كيف وصل العرب ، أبناء الصحراوات القاحلة الموحشة المقفرة الى هذه
المناطق البعيدة ؟

كيف تسلقوا هذه الجبال وملكوا زمام أمرها ؟
كيف أقاموا الابراج والقلاع والقصور وأخذوا يفرضون ذاتهم وكيانهم
على هذه المناطق ؟

بالإيمان - إيمانهم بنشر رسالة .. ولا شيء إلا الإيمان .
نعم ، أن إيمانهم بنشر رسالة يعم خيرها البشر ، وازدراءهم بزخارف
الحياة هو الذي مكّن لهم ان يستمر حكمهم ، في هذه المناطق البعيدة ،
ثمانية قرون ..

السائق يسير وثيداً وثيداً في قلب هذه الجبال التي ازدانت بأشجار الزيتون
وحيثما امتدّ نظر الانسان يجد مزارع واسعة .
لقد مرّت الساعات ونحن في قلب هذه الواحات الخضراء التي تزين هذه
المناطق المزدهرة ..

في الرابعة والنصف وصلنا الى قرية بابلين Babilen . وهي ضاحية جميلة
وقد مررنا على فندقها الصغير الموسّتل El - Hostal وهو فندق وديع يقصده
المصطافون في الصيف ، كما يجد فيه السائحون الذين يقصدون الاندلس ، قسطنطين
من الراحة لساعة أو بعض ساعة ، وقد استقبلتنا ربة الفندق بالترحاب ، وهي
أندلسية الزبي ، ذات عيني سوداوين ، وجمال أخاذ .. قضينا فترة في جوف
الدافئ نتناول بعض المشروبات ..

لقد لفت الدليل نظر ضيوفه الى شعار الفندق وهو :
إذا أردت أن تشرب لتنسى .. يجب ان تدفع سلفاً قبل أن تنسى !
ويظهر أن أكثر رواده من المرابين الذين يريدون ان ينسوا واقعهم ليعيشوا

في عالم النسيان .

ولم تكن الحرة شرابنا .. فحسبنا الشاي ودفننا قبل أن ننسى ! وعدنا الى
السيارة التي أخذت تسير بنا في هذه الجبال الى ان وصلنا الى منطقة ترتفع ألفاً
وخمسة مئة عن سطح البحر .. وكان الليل قد أسدل ستاره فلم نعد نبتين جمال
هذه المناطق المرتفعة المزدهرة الخضراء .. وما زالت السيارة تنهب السير الى أن
وصلنا الى غرناطة في التاسعة تماماً ، ودخلنا شوارعها الممتعة .. فلم نبتين على
اضوائها الخافتة إلا السكون .. وبعد دقائق كنا بالقرب من الحمراء .. نعم ..
بالقرب من قصر الحمراء .. فكادت اطيروثورة وفرحاً والمأ .. وكانت كل خلجة
في جسمي وفكري وحسي عيناً تتطلع .. ولكن الاشجار الباسقة قد حجب عني
رؤية القصر . ومن الصعب زيارته في جوف هذا الليل - والسيارة في طريقها
الى الفندق لا تشعربا يختلج في ضميري .. وما هي الا لحظات حتى دخلنا
فندق غرناطة الكبير . . فندق الحمراء .. واذا بي أجديني في جوٍّ شبه عربي -
جو عربي اخرس . البهو والقاعة والمدارج والاثاث - كلها ذات غط عربي .. وقد
زينت جدرانها بشعار ملوك بني الاسمر .. « لا غالب الا الله » .. - نقش بالحرش
العربية دلالة على ما تضمه غرناطة من آثار عربية . . فوقفت ازاء هذه النقوش
في حيرة المسمور . . اذكر الماضي والحاضر . . وبيننا انا في ذهولي إذ بالدليل
يطلب جواز سفري ويدلني على غرفتي . واصعد الى الغرفة لاضع امتعتي ثم أنزل
لاتناول طعام المساء .

واتنصف الليل وأنا في ثورة من المواجهس . أريد ان ينقضي الليل الطويل
بنمضة عين لأخذ طريقي الى قصر الحمراء !

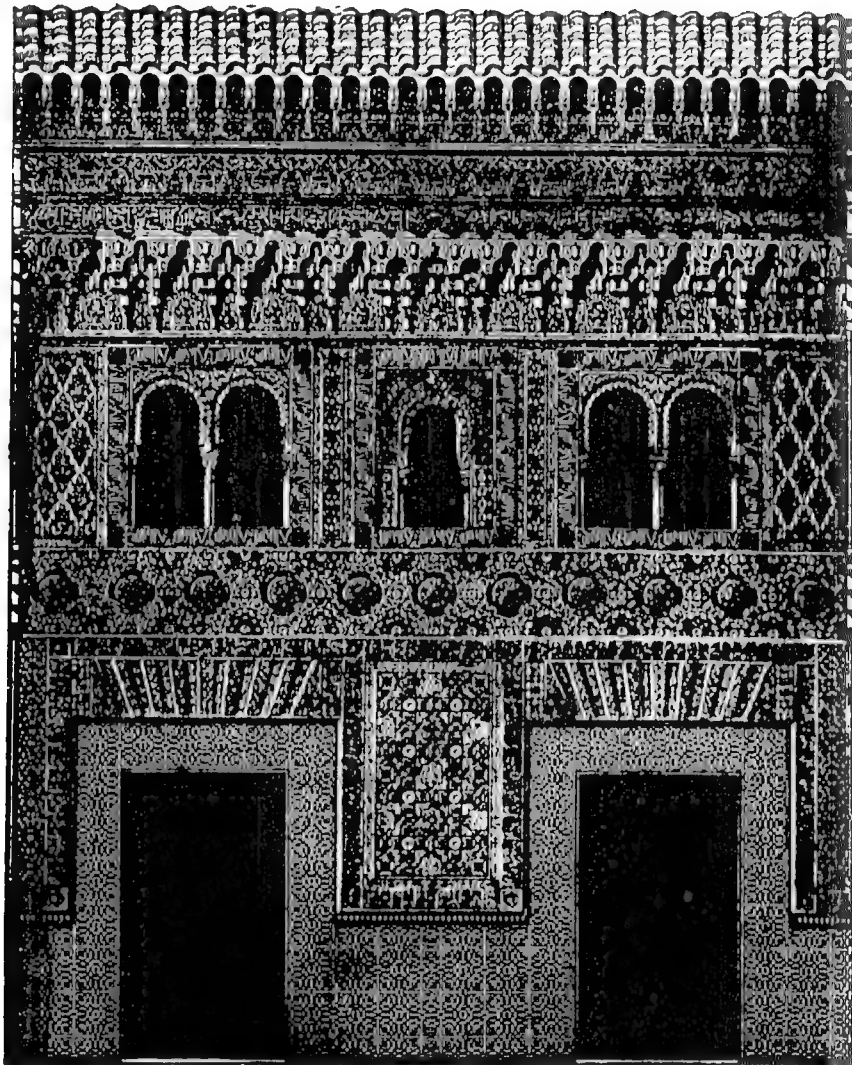
ليلى مؤرورة

٤ شباط ...

كانت غرناطة تلك الليلة منطاة بالثلوج وقد كسبت أرضها بطبقة من الجليد وكانت الرياح تعصف بشدة . والمدينة مغمورة بسكون موحش أو خيل الي أنها مغمورة بهذا اللون القاتم . ومع ذلك فلم ينقبض صدري لأني جئت غرناطة وكلي ثورة من الشوق وبركان من الحنين .

أأخلو الى غرفتي لأخذ قسطي من الراحة بعد سفر نهار كامل من مدريد الى غرناطة قطمناء في سيارة من سيارات بولمان الفخمة بين الجبال والوهاد . . لا . . لم اكذ اتناول طعام العشاء حتى أخذت طريقي الى مقصف الفندق استمع الى الموسيقى الأسبانية لعلي أبدد بعض متاعب الطريق وهذه الوحشة التي احسستها حين دخلت المدينة . . وظلت فترة في جو مسكر من نفحات الموسيقى الأسبانية والرقص الأندلسي ثم شعرت بالتعب .. فتركت المقصف وصعدت الى غرفتي لأنام ملء عيني .

أويت الى سريري وكننت أقدر اني سأغفو من اللحظة التي سأضع رأسي فيها على الوسادة . . ولكن تقديري كان في غير موضعه . . ظلمت فترة غير قصيرة اتقلب على جنبي من اليمين الى الشمال . . ومن الشمال الى اليمين ..



واجهة مسجد قصر الحمراء في غرناطة

وكانت ثورات من المواجهى تؤرقني بشدة .. وسرعان ما تركت السرير وقت
الى النافذة افتح مصراعها لاستنشق عير الجراء .. وكان فندق المدينة الكبير
بالقرب من قصر الجراء الذي تركه العرب آية من آيات الفن والأبداع . ان
الغلام يغمر القصر ويلف المدينة بطيلسانه .. فلا يكاد يلفحني الهواء القارس
حتى اغلق النافذة وأعود الى سريري .. وبرودة طقس غرناطة مما تتحدث عنه
الشعراء الاندلسيون وغير الاندلسيين بكثرة .. انهم يذكرون جبلها الشامخ
الذي لا ينفك عنه الثلج شتاء وصيفا .. وقد اذكرني برد غرناطة تلك الليلة -
اذكرني بان صدره الشاعر .. فقد دهمه البرد كما دهمني وكان بمن لا يترك فريضة
من فرائض الصلاة .. ولكن شدة البرد قد اضطرته ان يترك الصلاة في غرناطة
فقال ابياته الشهيرة التي توردها كتب الأدب وتنزل عليه الامنة لتركه الصلاة
وامتباحته شرب الخمر .

احل لنا ترك الصلاة بارضهم وشرب الخمر .. وهو شيء محرم
فرارا الى نار الجحيم لانها ارق علينا من «شكسبير» وارحم
وشكسبير اسم جبل غرناطة ويطلق عليه المؤرخون «شكر وهل جبل
نيفادا ومعنى نيفادا الثلج ويسمي العرب هذه الجبال بهيل الثلج أو «شكير»
بصفة التصغير .

ونمود الى الشاعر الذي اجاز لنفسه ترك الصلاة وشرب الخمر مع علمه
بالوزر الذي يرتكبه لانه رأى نار الجحيم أرحم من برد جبل شكير فحتم
مقطوعته بقوله :

ان كان ربي مدخلي في جهنم . ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم
ولئن يضطر زائر غرناطة اليوم أن يحل لنفسه ترك الصلاة وشرب الخمر
فراراً الى نار الجحيم التي هي أرحم من لفحات البرد التي ترسلها جبال نيفادا
كوخز الأبر أو اشد فان وسائل التدفئة ميسرة كل التيسير ولا سيما في هذا الفندق
الكبير - الجراء - الذي نزلنا فيه .

★ ★ ★

وأعود الى ما كنت في صدد فاقول لقد دهمتني الهواجس في تلك الليلة
وكنت أريد ان أقفز ، في هذا الليل البهيم ، الى باحة القصر - قصر الحمراء ..
ولكن انى لي ذلك ؟

لقد عدت الى فراشي أنام نوماً هادئاً مريحاً .. ولكنني لا أكاد
اغمض عيني حتى تعاودني الذكريات المؤلمة والهواجس المضنية فتستبد بي
من جديد ..

أرقت تلك الليلة أي ارق .. كنت ممن بنام على فراش من شوك .. وقد
وددت أن يكون معي أكثر من كتاب واحد عن غرناطة .. عن الحمراء .. عن
جنة الريف .. عن أي شيء آخر ..

كانت نفسي في ظمأ لان تقرأ ، كل شيء .. ولكن لم يكن معي أي
شيء . وهذا الذي نفر النوم من عيني وزاد في ثورة ارقني وهواجسي .

رأيتني على غير وعي مني ، اغمس في نفسي هذه الهمسة المدوية وقلت
مالي ولاكتب وأنا بالقرب من قصر الحمراء اقرأ في سجوفه سطوراً ذهبية
من ذلك السفر الخالد الذي تجلست في كل كلمة من كلماته ، وفي كل
نفس من نفوسه ، وفي كل حجرة من حجراته عبقرية العرب في الخلق
والأبداع .

أخذت استعرض ذيك التاريخ المجيد منذ فتح العرب الاندلس ، تلك
البلاد العظيمة ، الى أن خرجوا منها .

منذ عهد طارق بن زياد وموسى بن نصير الى آخر ملوك بني الاحمر .. الى
عبدالله الصغير .

أخذت استعرض تاريخ الاندلس الذي تأرجح خلال ثمانية قرون
بين هبوط وصعود ، بين نصر وهزيمة ، بين السؤدد والضعة ، بين اشراق
النور ودياميس الظلام ... نعم ، أخذت وأنا يقظان نائم استعرض ذيك الماضي
المليء بالمسرات والخسرات - فترات المجد وعهود الأنهار .. ساعات الصفو والهناء
وسنوات النحس والشقاء - منذ عهد الولاة الذي ابتداء بطارق بن زياد .. وانتهى

يوسف بن عبدالرحمن الفهري .. الى العهد الأموي الذي افتتحه عبدالرحمن الاول
سقر قريش - و انتهى بهشام بن محمد .

من صفحات الشروق الى صفحات الغروب - أريد تلك العهود التي ثارت
فيها المنافسات والمصيبات - من ملوك الطوائف ، الى الدولة الزيرية ، الى الدولة
المجوسية الى الدولة الموحدة ، الى الدولة العاصمية ، الى الدولة العباسية .
دول ودويلات قد جرت على العرب الكثير من الويلات والكارثات ..
من مملكة موطن الاركان .. مترامية الاطراف .. الى امارات هزيلة
وممالك خاوية ..

أي والله .. كنت وأنا مستلق في فراشي ، استعرض في ذهني صورة هذه
المنافسات وتاريخ تلك الدويلات التي كانت تحتصم وتتقاتل وتسفك الدم العربي
الحار في أرض لا يزال أصحابها يتربصون الفرص لان يضربوا الضربة القاصمة
التي مهد لها بهذا التنافس المريع على امارات هزيلة ..

ومن الدولة العباسية الى بني الألفس .. الى الدولة المجرية .. الى دولة
ذي النون .. الى المرابطين .. الى الموحدين .. الى بني الأحمر الذين كانوا آخر ملوك
ختمت بصفحتهم السوداء - استغفر الله أريد صفحة آخر ملوكهم - اجمل وأبرز
عهد زاهر تركه العرب في الاندلس .

لم انم ليلتي تلك - كنت استعرض التاريخ صفحة صفحة ، عهدا اثر عهد
وملكا اثر ملك ، وأميراً اثر أمير ..

كان أكثرهم يتنافسون على ايجاد زائلة ..

كانوا يتقاتلون ويصطرون ويثيرونها حرباً شعواء في سبيل امارات صغيرة .
في كل مدبنة دولة .. ولكل دولة أمير ووزراء .

وقد تكون مملكة الأمير قلعة او كورة . وقد لا يزيد نفوس المدينة التي
يحارب في سبيلها - على الخمسين الف نسمة

انتهى الملك المريض الضخم الى عشائر متنازعة وقبائل متنافسة
كان بعضهم يطلب المدد والمعون من المدو الاسباني الذي كان لا يخل

بجده على الاميرين المرينيين المتحارين . أي كان يضرب هذا بذاك ليختر أمامه
منهوك القوى وليستطيع أن يضع يده على الامارتين بسهولة وبدون عناء
وهكذا قد ظلت المملكة الاندلسية فترة غير قصيرة فريسة هذه المنافسات
والمنازعات لعبت الأهواء والدسائس والضغائن والمطامع والحزبية القبلية وحتى احقاد
النساء لعبت كل هذه المآثم دورها الخطير في تقويض ذلك البنيان العظيم .

★ ★ ★

لقد اضنقتي هذه المواجهس في ذلك الليل الطويل . وكانت عقارب الساعة
تشير الى الثالثة بعد منتصف الليل ولما انتم . . وكلما اغت عيناى اثر التفكير بذلك
المسير نفرتي هاجس جديد . . لقد أردت تلك الليلة أن أنسى هذه المآسي . . أن
أعيش فترة في المفاخر والأجداد . فيما تركه العرب من أدب وفن وحضارة .
ولكن قصة خروج العرب من الاندلس هي التي ارتقتني . كانت صور المناقشات
تتلاحق في ذهني بصورة جد مريمة - صور بشعة من الانحدار الذي وصل اليه
اوائك الذين شوها سمعة التاريخ العربي . . لقد وصل الانحدار الى أن يكيد
الاخ لاختيه . . بل الى ما هو أشد من هذا . . أن يثور الابن على ابيه .
ولعل قصة ابي الحسن وابنه عبدالله آخر ملوك بني الاحمر هي ابشع القصص
التي تروي عن رعونة تلك المنافسات .

اب يقاتل العدوليصون حمى المملكة فيثور الابن ويعلم انتفاضة على ابيه !
وقراء التاريخ الاندلسي يدكرون أن لابي الحسن زوجتين احداها بنت
عمه واسمها عائشة . . والثانية اسبانية واسمها ايزابيل أو الزهراء كما تسميها الرواية
العربية . وكان أبو الحسن يميل اليها والى اطفالها . . فاثار هذا الميل غيرة عائشة
وحسدها . . فما ان سافر زوجها على رأس جيش لصد القشتاليين حتى حرضت
ابنها ابا عبدالله أن يثور على أبيه فانصاع لأرادتها ورشت قسماً من الحاشية وبعض
رجال القصر اينادوا بابنها الفتى ملكا عليهم . ولم يكديسمع الأب بخطوط هذه
المؤامرة حتى ترك ميدان القتال وعاد ليطلق نيران هذه الفتنة . . وحين اطمأن عاد
الى قتال القشتاليين . . وبينما هو يخوض أعنف معركة مع خصمه فرديناند إذ بالابن

الثائر وقد ركبته خيلاء الطموح يستولي على قلعة الجراء وينادي بنفسه ملكاً على غرناطة وكافة أطراف المملكة .. ويضطر الأب أن يترك مملكته . . وأن يترك خصمه وأن يلجأ الى مالقة ..

ولا استرسل في سرد نهاية هذه القصة الحزنة التي انتهت بطرد الابن ونفيه من عرش المملكة فكانت هذه الحادثة المريبة هي الفصل الأخير في هذه المأساة الدامية .

نعم ، كانت هذه القصة بالذات أكثر القصص التي سيطرت علي تلك الليلة من ليالي غرناطة فحرمتي النوم .

وقد ظلمت اتقلب على فراشي حتى الرابعة صباحاً ففي تلك اللحظة كانت نوايس غرناطة تفرع قرعاً متواصلاً من مأذنة جامعها الكبير . وشمرت بالمسبهدني فاستسلمت لنوم متقطع ، وقد ظلمت في غفوتي السادرة حتى التاسعة تماماً .

في هذه اللحظة كانت غرناطية ربة الصبا ، موردة الخدين ، دعجاء العينين تنقر الباب برفق فلا اكاد أصابحها وتصايحني حتى افهم من كلماتها الاسبانية المشوبة بفرنسية ذات لثغة مرقصة أن رفاق السفر في انتظارني .. فأفيق كالذئور الذي يهدده صوت ناعم يزيل عنه بمض أرقه وهواجسه وحاجته الى المزيد من التمتع والاسترخاء وبقيّة من نوم هنيء ..

وما اكاد آخذ حمامي وألبس ثيابي وأتناول فطوري حتى أكون مع الركب نسير الهويناء في أرض مغمورة بالثلوج لزيارة قصر الجراء .

بنو الأحمر

قبل أن ندخل مع القارئ الكريم قصر الحمراء - ذلك القصر العجيب الذي لا يزال يرمز ، رغم تقادم السنين ، الى عبقرية العرب في الفن والبناء قبل أن ندخل أبهاء هذا القصر لا بد من كلمة عن الذين أشادوه ، عن ملوك بني الأحمر آخر ملوك الأندلس الذين دامت دولتهم مئتي وخمسين سنة في غرناطة وما اليها من المدن والقرى والديار بما فيها القلاع والحصون والثغور . . أي في الرقعة الواقعة بين جبال نيفادا وساحل البحر ، وهذا كل ما بقي في أيدي العرب بعد أن كانت نصف الجزيرة الاسبانية في حوزتهم وتحت سيطرتهم .

من هم بنو الأحمر ؟

هم قبيلة عربية من سلالة بني نصر الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة ، سيد الخرج واحداً ركان الصحابة البارزين . جاؤوا الى الأندلس عقب الفتح الاسلامي ودخلوا في خدمة الدولة الاموية ، كقواد مغامرين لهم صولتهم وسلطتهم . . اذ كانت قيادة الجند هي أبرز الوظائف التي تقلبوا فيها .

وقد شهد أحفاد هذه الاسرة العربية المريقة والاسى يعصر قلوبهم انهيار هذا الملك المريض الذي بناه أجدادهم بقوة إيمانهم وحن سيوفهم ، فاستيقظت هذه الروح بقوة وعنف عند رئيس هذه القبيلة « محمد بن يوسف » الذي كان يراقب ،

وهو في حصنه المنيح - حصن أرجوته من أعمال قرطبة - تفاقم الفتن الداخلية من جهة وغزوات الاسبانيين للقواعد الحصينة وتغلبهم عليها من جهة أخرى ، وكيف أخذت المدن تتساقط الواحدة بعد الأخرى ، بيد الأعداء فلم يهتمل أثر هذا التصدع في البنيان الشامخ ورأى أن الجهاد أصبح فريضة مقدسة ، فما أن باح برأيه حتى التفت حوله الكثير من الزعماء الذين يسندونه ويشايعونه في رأيه وكانت وثبته الأولى استيلاءه على « بياسة » و « وادي آش » و « جيان » و « شريش » و « مالقة » و « كثير غيرها من القواعد والحصون ...

كانت هذه الوثبة مدعاة لأن ينضم تحت لوائه الكثير من فرسان العرب الذين نزحوا عن المدن التي وقعت تحت يد الاسبان . . واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من المشاة والفرسان ويوجهه الى غرناطة التي كانت تحت حكم ابن هود الذي ولى عليها عتبة المغيلي ، وهو من خصوم ابن الأحمر ، وكان حكمه جائراً ، ضاق السكان بمسفه وظلمه ، فما أن علموا بقوة ابن الأحمر وجيشه الذي وجهه شطر غرناطة حتى قامت الثورة على المغيلي وقتلوه واعلنوا طاعتهم لابن الأحمر وبعثوا يستدعونه ، وكان على أهبة دخوله . . فدخلها في يوم من أواخر رمضان ٦٣٥ هـ سنة ١٢٣٨ م ، في أصيل يوم نزوله ، وهو يرتدي ثياباً خشنه وحلة مرقعة ، ونزل بمجامع القصبه ، وأم الناس لصلاة المغرب ثم خرج من المسجد الى قصر باريس والشموع بين يديه ونزل فيه مع خاضته ، وبذاغدت غرناطة حاضرتة ومقر حكمه . . وتصف لنا كتب التاريخ خصائص هذا الرجل الذي كان يجمع الى روح المفامرة وصفات الرجولة الزهد والتقشف والبعد عن مظاهر المجد ، مع الحرص الشديد على صون التراث الاسلامي الذي وضع لبناته أفذاذ مغامرون .

ويشير ابن خلدون الذي عاش في غرناطة وعرف الكثير من خصائص ملوك بني الأحمر يشير اشارات واضحة الى سرعة نهوض هذا الحاكم القوي الذي اكتسب بمتانة خلقه ومقدرته نفوذاً عظيماً على بني قومه . . فحين أخذ سلطان الموحدين ينهار ، وأخذ الزعماء يسلمون حصونهم الى العدو لقب ابن الأحمر نفسه بالسلطان وسمي الغالب بالله . . وقد وجه كل اهتمامه لصيانة أطراف مملكته وأطراف

١٠ طاعينتها، فأقام في غرناطة القلعة المشهورة المسماة « قصر الحمراء »، والتي عمل من جاء بعده على ذريته على توسيعها وتجميلها .
ونهج هذا الأمير نهج السلف الصالح في ادارة المملكة وفي سياسة الدولة .. كان يبأسر الأمور بنفسه ويدقق في جميع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح .

وكان يعقد بمقد مجالس عامة يومين في الاسبوع يستمع فيها الى الظلامات وذوي الحاجات ، يستقبل الوفود ويستمع الى قصائد الشعراء .. وكان يجري في تصريف شؤون المملكة على قاعدة الشورى فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ، ومن اليهم من ذوي الرأي للاسترشاد برأيهم ونصيحهم .
ولن نسترسل في سرد قصة هذا الرجل الذي حمل عبء أعظم تراث اسلامي في بلاد النصرانية . كانت مملكته بداية النهاية نهاية ذلك الملك الضخم الذي تمزق وتناثرت اشلاؤه بحكم الجزازات الفردية والمصيبات القبلية والتطاحن الخسيس على الامارات والرئاسات .

نعم ، لن نسترسل في سرد قصة هذا الرجل فحسبنا منها ما معنا اليه .. ولكن لا بد من لمحة عن مدة حكمه ومن جاء بعده من ملوك بني الأحمر وهم أولاده وأحفاده الذين كان على يدهم نهاية المأساة ..

فمذاستوى محمد بن يوسف على سدة الملك أخذ يعمل على صون مملكته سواء بالدفاع عنها بقوة السلاح وبالجيش الذي أعده لاختاد الفتن الداخلية ورد هجمات أعداء المملكة الطبيعيين أم بهذه المعاهدات التي اضطر الى عقدها مع خصومه ..

ففي خلال حكمه الذي دام قرابة الأربعين عاما لم تهدأ له ثائرة .. كان في حرب دائم مع الاسبانيين .. ورأى الشعب الأندلسي فيه الزعيم المنقذ فالتفوا حوله وانضموا تحت لوائه ، ورأى الاسبانيون ، بعد أن اطاحوا بالكثير من الامراء واستولوا على الكثير من الممالك والحصون ، أنه لم يبق أمامهم غير هذا الزعيم الذي أخذ نفوذه يتزايد بالرغم من انصواء الكثير من الامراء تحت رايتهم ..

وقد شعر بالمهمة الملقة على عاتقه . ورأى أن الانطواء والانكماش في حدود هذه المملكة ليس من شيم الرجال واطماع الاسبانين تحيط به من كل طرف ، فبدأ هو القتال .. وكانت قلعة مرطوس هي أولى المواقع التي مدد ضربته نحوها .. وهي قلعة متينة ، ف ضرب حولها الحصار ، وكان ذلك سنة ٦٣٦ هـ .. أي بعد بضعة سنوات من حكمه ، وبعد حروب عنيفة اضطر ابن الأحمر أن يرفع عنها الحصار وأن يشترك معهم في معركة دامية أحرز فيها النصر ، وقد آثار هذا النصر نائرة الاسبانين وحسبوا أكثر حساب لقوة ابن الأحمر .. وقرروا وجوب تحطيمه قبل أن يزداد قوة .. فأعد فرديناند الثالث جيشاً كبيراً تحت قيادة ولده الفونسو وعزم الا يرجع الا بعد أن يحطم جيش ابن الأحمر .. ودامت الحرب سنوات كان النصر فيها للاسبانين الذين استولوا على حصن أرجونه وعدة حصون وأماكن من مملكة غرناطة .. ثم حوصرت غرناطة نفسها عام ٦٤٢ هـ ، ولكن جيش ابن الأحمر قد استمات في الدفاع عن عاصمة المملكة واستطاع ، والأمير على رأس الجيش ، أن يرد الاسبانين عن أسوارها بخسائر فادحة ..

فارتد الجيش الاسباني الى جيان وحاصرها حتى كادت تسقط في أيديهم .. فلما رأى ابن الأحمر تفوق أعدائه الذين حشدوا له جيشاً ضخماً من مختلف الممالك الأوربية ، وأن المقاومة لون من الاتحار ، آثر الهدنة ومصانعة ملك قشتاله .. وقد أعقب هذه الهدنة عقد معاهدة صالح لمدة عشرين عاماً .. وهي معاهدة جائرة من بنودها أن تصبح غرناطة شبه مقاطعة تابعة للعرش الاسباني وتسليم بعض الحصون ودفع جزية سنوية قدرت بمئة وخمسين ألف قطعة ذهبية ، وقد اضطر الى عقد هذا الصلح بعد أن تألبت أوروبا كلها تقريباً ضد هذه المملكة الصغيرة التي صمدت للأحداث بقوة وجبروت ..

وقد قضت بنود هذه المعاهدة أن يدعم ابن الأحمر الاسبانين في قتالهم مع ملك اشبيلية ..

فقدم له الجنود المسلمين ليقاتلوا اخوانهم المسلمين تمهيداً لاستيلاء الجيش الاسباني على مملكة اشبيلية .. وعلى قادس .

فأى خذي هذا الذي أقدم عليه هذا الملك المقدم ، لا شك أنه أقدم عليه والدموع تترقرق بين عينيه ؛ وقلبه يتفطر أسى وألماً ، بل ينزف دماً ..
وفي رواية أن ابن الأحمر ، في دعمه الجيش الاسباني ضد أبناء جلده ملوك اشبيليا - طمأن نزع الانتقام منهم .
ولسنا من هذا الرأي ، فإن صحت الرواية تكون هذه السيئة قد حث كل حسناته . بل هي جريمة نكراء أكثر منها سيئة تذهب الحسنات .. والتاريخ ان يغفر له هذا الأثم النكر .

بعد أن هدأت تائرة الحروب وعاد الى غرناطة أخذ يستعرض الماضي وما قام به الأجداد وما انتهى اليه الاحفاد .. فبكى .. ورأى أن الانكماش في ظلال القصر وعدم بذل الدم هو لون من الموت .. ولا سيما وقد لس يده أطماع أعدائه الطبيعيين .. لقد كان منهم على حذر .. وأخذ يتحين الفرص .. ورأى أن يستنجد ببني مرين - ملوك افرقية - المغرب الأقصى - وان يجمع فلول جيشه من جديد ، فلما رأى أن جيشه قد استعاد قوته اعترم امتتناف القتال ، وقد استطل بجيشه ، وبهذه القوات من التطوعين والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر أن يهزم العدو ، وأن يرد عن حدود مملكته ، وليس هذا فقط بل قد استولى على بعض المواقع والحصون .. فكان لهذا الانتصار أثره الصاعى على رؤوس الاسبانيين الذين حشدوا أيضاً جيشاً ضخماً لرد هذه الهجمات وعاود ابن الأحمر استنجد بأمراء المغرب ورجال القبائل لاغاثمة الاندلس قبل قوات الوقت . ولكن الأمداد لم يصل .. وبعد عدة معارك خاضها وحده رأى أن من المصلحة ، وخوفاً من أن تضيق المملكة . أن يهادن ملك قشتاله من جديد بعد أن نزل له عن بعض الحصون .

• • •

وهكذا ، فقد مرت حياة مؤسس هذه المملكة الصغيرة في صراع دائم .. وكانت نفسه تحيش بكبريات الآمال .. ولكن ما عساه أن يفعل وقد تألبت عليه اوروبا بروحها الدينية العاصفة .

فما كان منه ، بعد أن دخل أكثر من معركة واحدة ، الا أن ينزوي في مملكته الصغيرة ، الضيقة الحدود والاطراف ، يعني بشؤونها ويشاهد عن كثب

بعض الانتفاضات التي ثور من هنا وهناك .. ولم يمتد به الزمن ، فقد توفي سنة ٦٧١ هـ على أثر سقوط من جواده ، وكان قد قارب الثمانين .. وكأنه قد وضع الأسس الوطيدة لازدهار هذه المملكة التي ازدهرت وظلت مدة مئتي وخمسين سنة تقاوم الاغصير .

هذا ، وقد تعاقب بعده على عرش هذه المملكة قرابة العشرين ملكاً وأميراً ، ولكل واحد قصته . وتباين صور هذه القصص .. بعضها قصص مزوية .. وبعضها قصص ذات مفاخر وأجناد ولن نسر جميع هذه القصص .. بل نلجأ الى ذكر أبرز من مثل دوره على مسرح هذه المملكة التي كان انهيارها مأساة لا تزال صورها تهن النفوس وتثير القلوب لوعة وتستقطر من المآقي الدم بدل الدمع .

بعد محمد بن يوسف خلفه على العرش ابنه أبو عبدالله محمد الذي تابع سيرة أبيه في الجهاد وكان أبو عبدالله عطر السيرة ، محبوباً ، وكان الى تبجسه في الفقه والعلوم العربية يعطف على العلماء ويزدان مجلسه بمجادلاتهم ، وكانت الفيوم الكثيفة التي تحيط بالمملكة هي التي تشغل باله ، وكان من علماء الشرع ، فقيهاً ، محباً للعلوم ، ففي عهده ، غزا ملك قشتاله مملكة غرناطة فصعد له الملك العالم ، وكان قد استعان بملك بني مرين واستطاع أن يهزمهم في معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالي الذي كان يسميه العرب « دون نونو » .. وبعد احدى عشرة سنة نشبت الحرب مجدداً بين ملك قشتاله وملك غرناطة ، دامت مدة طويلة انتصر فيها الملك الشاب انتصاراً لا يقل عن انتصاره الاول ، وقد دام حكم ابن عبدالله محمد ثلاثين سنة كان مثال السلطان العادل الذي يعنى برفاة مملكته وسيادتها أكثر من اهتمامه بذاته وأموره الخاصة ،

بعد وفاته ، كان ذلك عام ١٣٠٢ م خلفه ابنه ، ولقب بنفس الاسم وسار سيرة أبيه وجده . ولم يطل حكمه فقد ثار عليه ، بعد سبع سنوات ، أخوه الناصر وخلعه عن العرش .. وتربع على دست الحكم ولم تكن له نفسية أخيه في خوض المارك . بل كانت أبهة الملك هي التي استهوتته . ولم يهأ به — نذه الابهة ، فما كاد يرى الاسبانيون هذا التناحر على كرسي المملكة بين الاخ وأخيه

حتى رأوها فرصة ملائمة لاستئناف القتال من جديد . تعاقد ملك الاراغون مع ملك قشتاله للقيام بهجوم صاعق ، فما كان من الناصر الا أن خضع لهما وقبل بدفع جزية سنوية .. ثم اضطر أن ينزل عن العرش لعدم استطاعته القيام بأعباء الملك - نزل عنه لا لأخيه بل لأحد أحفاد اسماعيل أخي ابن الأحمر مؤسس تلك الأسرة .. وكان اسمه اسماعيل أيضاً .

وشعر اسماعيل هذا بالمهمة الملقة على عاتقه لحفظ التراث وصون المملكة من هجمات القشتاليين الذين جمعوا صفوفهم وأرادوا إخضاع مملكة غرناطة الى نفوذهم نهائياً . وكان الجيش القشتالي تحت قيادة ابن الملك المسمى « بذرو » وكان الى جانبه خمسة وعشرون أميراً من أمراء أسبانيا وبعض ممالك أوروبا ، حتى انكثرت قد أمدت الجيش القشتالي بقوة كبيرة من جنودها على رأسهم أمير انكليزي - ومع هذا الحشد العظيم ، استطاع هذا الأمير الشاب أن يكسب المعركة وأن يصون حمى المملكة وأن تكون ضحايا الجيش الاسباني جد كبيرة .. فقد سقط جميع الامراء مجندين في ساحة الوغي ومن بينهم - بذرو ابن ملك قشتاله وقائد الحملة .

أن مدة هذا الحفيد لم تطل مع الاسف ، فقد اغتالته يد أئيمة لا مجال لسرد عواملها هنا ، وهي نتيجة هذه المطامع الخسيسة التي كانت تشور في نفوس بعض الطامعين .. وقد اعتلى العرش ابنه أبو عبدالله محمد الذي استطاع أن يلعب دوراً خطيراً في بسط نفوذ المملكة ، وأن يكون امتداداً لما قام به أبوه ، واستطاع أن يضع يده على جبل طارق وأن يسترده من الاسبانيين بعد أن دخل في حوزتهم ، ولكن سلطة هذا الشاب لم تدم فبينما كان عائد أمن أحد الحصون في رحلة استكشافية على مراكز الجنود، انقض عليه بعض المتآمرين المختبئين وراء أحد الصخور وفتكوا به . فذهب كما ذهب أبوه ، ضحية الفدر ، وكانا قد كسبا أعظم المارك الحربية بعد أن أنزلا بالاسبانيين خسائر فادحة .

بعد مصرع السلطان محمد خلفه أخوه أبو الحجاج يوسف ، وكان كما نقول

الرواية العربية والمصادر الاسبانية ، من أذكى وأشهر ملوك بني ناصر . وكان عهده عهد أمن ورخاء وطمانينة .

عرف ، كآسلافه ، بحبه للعلم ، وتشجيعه لرجال الفكر ، وقد اعتزم أن يهيج نهج اسلافه ولكن الاقدار لم تمهله فبينما كان يؤدي فريضة الصلاة في مسجد القصر ، إذ بمجنون يطعنه بخنجر طعنة نجلاء يخر على أثرها صريعاً .

وهكذا ، وفي فترة قصيرة جداً خسرت أسرة بني الاحمر ثلاثة من أنبل الشباب كانوا يعملون بحماس لصوت المملكة من الفتن الداخلية والصمود للهجمات الخارجية .

وجاء الى سدة الملك بعد مصرع أبي الحجاج يوسف ابنه محمد الفتي بالله .. وهو كأييه محب للعلم ، مشجع للعلماء ، ذو ثقافة واسعة ، وقد استوزر حين تسلم مهام السلطنة ، الاديب المؤرخ اسان الدين بن الخطيب . وأحب بعد أن استلم زمام الحكم أن يتفقد شؤون الرعية ، فلم يكذب ترك غرناطة العاصمة ويقوم بجولة في الاطراف ، يزور الحدود ويتفقد القلاع والحصون ، ويستمع الى أفراد الرعية ويتحسس مشاعرهم . ومدى رغبتهم في القتال والصمود للعدو حتى يفاجأ بنبا اقض مضجعه — أعلن أخوه اسماعيل — نفسه ملكاً ، فكان لهذا الخبر وقع الصاعقة في نفس الفتي بالله الذي آلمه أن يقع هذا الضرر من أخيه في ظروف عصيبة يتبها فيها العدو للضربة القاضية .. وقد ترك الاندلس الى أفريقية واستوطن مدينة فاس يرقب الاحوال عن كثب .

الا أن حكم أخيه اسماعيل لم تطل مدته .. فقد نشبت في هذه الفترة فتنة داخلية تزعمها أبو سعيد الملقب بأبي عبدالله محمد الذي هجم على القصر وقتل اسماعيل . وخيل الى هذا الرجل أيضاً أن حكمه سيطول ، ولكن القشتاليين كانوا له بالمرصاد ، فلم يتركوه بلذة الحكم ففتكوا به واستولوا على ثروته .

وإذ خلت مملكة غرناطة من رجل من بني الاحمر يسوس أمرها ويدافع عن كيائها ، جاءت الوفود الى الفتي بالله تدعوه للمودة الى عرينه ، والى المملكة التي أسسها أجداده ، فناد الى غرناطة ونفسه مليئة بالآمال العظام وقد استقبـله

الشعب الغرناطي أعظم استقبال .. وأخذ يصرف الامور بحكمة ودراية ، جمع حوله العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ .

وتميزت فترة حكمه بالهدوء والسكينة ، وبالصلاة الطيبة مع القشتاليين . وكان لذلك أثره ، فازدهرت التجارة والصناعة واستبحر العمران . وكانت أيامه مليئة بالرغد والطمانينة والابتسام .

وفي سنة ١٣٩١ م توفي النبي بالله فحزن الشعب على وفاته حزنًا عظيمًا وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذي حرص أن يوثق علاقته مع القشتاليين كأبيه ، ولم يكن الشعب راضياً عن هذه العلاقة بل كان شبه ثورة ، ويرى في هذه العلاقة التي أرادها الاسبانيون صورة من التخدير ليضربوا الضربة القاضية . وثارت الحرب من جديد مع القشتاليين ، أثارها الشعب على البيت المالكة ، فإذ كانت نتيجة هذه الحرب ؟ كانت النتيجة القلب والتفوق للاسبانيين ، مما اضطر الملك أن يعقد معاهدة مع الملك الاسباني هنري الثالث بشروط اعتبرها شريفة . « وإذ ترك الملكة بعد وفاته لابنه الأكبر المسمى يوسف أيضاً - أراد أن يقوم بصون هذه الملكة .. وأن يسير في هذا المضمار الا أن الاصفر - واسمه محمود - قد ثار على أخيه وسجنه في قلعة « ساروبرينا » .. وممرت عشر سنوات نشبت خلالها حرب بين العرب والقشتاليين .. وبموت محمود هذا سنة ١٤٠٨ م أخرج سيدي يوسف من السجن وأعلن ملكاً على البلاد ..

ومرت أيامه مع القشتاليين في صراع دام ، من هدنة الى حرب ، ثم الى هدنة جديدة انتهت بصلح طال أمده ، وقد كانت أيامه من أزهر الايام للعرب والاسبانيين معاً ..

وكانت مملكة قشتالة تحت حكم الطفل ابن هنري الثالث .. وكانت أمه هي الوصية عليه . وكانت صلاتها مع الملك العربي على غاية من المودة والصفاء .. كانا يتراسلان ويتبادلان أئمن الهدايا وتحفظ دار المحفوظات في مدريد ببعض هذه الرسائل بالعربية والاسبانية .. وكثيراً ما كانت الخلافات التي تنشأ بين الامراء

القشتاليين تحمل وتسوى في بلاط الملك يوسف الذي أحبه الاسبانيون والعرب معا . حتى الخلافات التي كانت تقع بين الأمراء القشتاليين ، وتمس الشرف والكرامة كان يتدخل هذا الملك العربي لحلها ، فتنازل الرضى . . وهدأت الحرب مدة طويلة مما حمله ان يتفرغ الى عمران غرناطة واصلاح ما تخرب ..

وقد دامت سلطنة الملك يوسف الثالث خمسة عشر عاماً مرت أيامه على أحسن ما يرام .. ولكن النذر كانت تعصف من بعيد ، فموته حزن الشعب حزناً كبيراً ، وخلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر . وكان ذا خلق وعنفوان لا يحمل من شمائل أبيه أية ظاهرة . . فما كاد يحكم حتى أخذ يصدر بعض الأنظمة الصارمة التي تمس شعور الشعب فكرهه وثار عليه .. ثم عاد الى غرناطة .. فلم يرحب الشعب بعودته ، وما كاد يتربع على دسك الحكم للمرة الثانية حتى طرده شر طرده .. وسرعان ما اهتم القشتاليون للأمر ونصبوا أحد اتباعهم المسمى يوسف ، وهو من أشرف غرناطة ، وكان ذلك في عهد جون الثاني ملك قشتالة .. ولكن لما رأى الغرناطيون أن اليد الأجنبية هي التي رفعت هذا الرجل الى سدة الملك وهو ليس من أسرة بني الأحمر ثار حنينها الى الملك الذي طرده المرة بعد المرة . . فعاد لمملكة آبائه من جديد . . ودخل في حرب طاحنة مع القشتاليين واستطاع أن يردهم عن أسوار غرناطة وأن تدور المعارك في وادي آش وفي أطرافها .. وفي سنة ١٢٤٤ أقصي نهائياً عن الحكم من قبل ابن أخيه ابن الأحنف ، الذي أولاه الشعب ثقته .. وكان الصراع قوياً بين الشعب وبعض الوصوليين الذين كانوا يرمون في أحضان الأجنبي للوصول الى كرسي الرئاسة . . وقد قام بعض المتزعمين الذين يسمون أنفسهم أشرفاً ، بتأليف وفد منهم قصد الى ملك قشتالة جون الثاني وبايعوا « أمدا » الملقب بابن اسماعيل ابن عم ابن الأحنف وكان ملتجئاً عند جون الثاني ..

دخل هذا الملك الذي اعتبره الشعب صنيفة الأجنبي ، دخل غرناطة مع غير واحد من الأمراء الموتورين على رأس قوة من القشتاليين - فاستقبلهم الشعب

بفورة عنيفة من الغضب .. وأخذ ابن اسماعيل هذا ، يقوي صلته "الاسبانيين ، يرسل اليهم الهدايا والسفراء لتجديد معاهدة الصلح .. فكانت جوابهم المراوغة ، أمهلوه فترة - ثم ثاروا عليه .. وغزا القشتاليون غرناطة - الحصن الوحيد الذي بقي بأيدي العرب - غزوه من جديد ، ووقف الجيش النرناطي وأهالي غرناطة يردون هذه الغزوة الكبرى .. وقد دامت الحرب سبع سنوات كاملة كانت غرناطة خلالها فريسة للنيران والتهديم ، فأحرقت بيوت المسلمين .. وخربت المزارع وهدمت القصور ، وأخيراً اضطر هذا الملك الذي استولى على المملكة بيند الأجنبي ، وضد ارادة الشعب - اضطو أن يعلن عجزه وأن يطلب الصلح بأي ثمن . فاعترف بسلطان هنري الرابع ، وتمهد بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار .. وأبرمت المعاهدة شخصياً فاجتمع الملكان على مقربة من غرناطة .. ودام الصلح حتى وفاة ابن اسماعيل سنة ١٤٦٦ .

• • •

وبوفاته خلفه ابنه الأكبر أبو الحسن ، وهنا تبدأ سلسلة جديدة من المتاعبي على مسرح المملكة ليست فصولها هذه المشاهد التي تقع في ساحات الحرب بين ملك وملك ، وجيش وجيش ، بل من كل هذا ، وبما في نفوس الأمراء من مطامع اثارها غير امرأة .

فقد كان لأبي الحسن زوجتان ، احدهما ابنة عمه واسمها عائشة أنجبت له ولداً اسمه أبو عبدالله محمد ، والثانية اسبانية اسمها ايزابيلا ، وقد أسماها " الزهرة " وكان أبو الحسن يحبها حباً جماً ، أنجبت له أكثر من ولد واحد ، فكانت هي وأولادها موضع حبه ورعايته مما أحقد عليه قلب زوجته عائشة وابنها .. وهذا الحقد شيء طبيعي ، هو بعض غير المرأة الجموح ، ولكن هل وقف الحقد بينها وبين ضرتها - بين عائشة وايزابيلا .. لا .. فقد تمدها الى تدبير مؤامرة جد خطيرة ضد الزوجة .. أي ضد الملك أبي الحسن .. فقد قادت الثيرة الرعناء قلب عائشة الى أن تدبر مؤامرة لتطيح بزوجها وتنصب ابنها على سدة الملك - وتفيض كتب التاريخ بسر قصة هذه المؤامرة - أو ثورة الابن على الأب ، مما مهد لضياع البقعة الباقية من ملك الاسلام بالأندلس ..

ومن المفارقات العجيبة التي وقعت في تلك الفترة والتي عجلت في امييار الدولة الاندلسية زواج فرديناند ، أمير قشتالة ، من اربلا ملكة أرغونة سنة ١٤٦٦ م - أي أن العامل امرأه أيضاً .. فقد عملت عائشة على تصديع أركان مملكة غرناطة بثورة الابن على أبيه ، وعملت ايزابيلا بواجها من فرديناند على تقوية خطوط الدفاع بتوحيد صفوف المملكتين ..

وهكذا ، فإن عدة عوامل كانت تتلاحق لتهميد سبل الاضمحلال .. كانت أبو الحسن يواجه الأحداث الداخلية بقلب دام ، وكان على شيء كثير من الاعتزاز ، ولكن ما سيكون موقفه وقد أصبح وحده في الساحة ، بعد أن تخلى عنه حتى أقرب الناس اليه .. لقد اعتزم أن يغامر .. وهي مغامرة جسد خطيرة .. ولكن هل يركن الى الخور والضعف والمرد على الأبواب .. فقد ترك له أبوه تركة مثقلة بالأهوال .. وكان بدء التحرس من الاسبانيين ، وقد أرسل فرديناند رسله الى غرناطة يطلب الجزية .. وامتنع عن الدفع . ولم يلجأ الى سياسة المدورة والاعتذار .. بل أجاب الرسل بكلمات نزلت على رؤوسهم كالصاعقة قال لهم بكثير من الاعتزاز :

قولوا لفرديناند « أن الملوك الذين قبلوا دفع الجزية قد ماتوا » ، أما أنا ، فجعلت من « دار الضرب » مصانع للسيوف وأسنة الرماح »
لم يكن أبو الحسن هازلاً عندما ألقى هذه الكلمة على مسامع الرسل .. بل كان جاداً كل الجاد .

فسرعان ما قاد جنده الى الزهراء واحتل المدينة بفترة .. وقد أثار انتصاره كوامن حقد الاسبانيين أجمع وعلى رأسهم ايزابيلا وفرديناند اللذين اعدا جيشاً كبيراً لانقاذ الشرف الاسباني .. وكانت وجهتهم مدينة « الحسام » وهي مدينة حصينة قريبة من غرناطة وعلى بعد / ٥٠ / ميلاً وتكاد تكون مفتاحها الطبيعي . فاستولوا عليها وكانت أولى أعمالهم حرقها بعد أن نهبوا كل ما فيها وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ، فكانت مجزرة رهيبة أثارت الرعب في قلوب الفرناطيين الذين اعتبروا دفاع أبي الحسن هو الذي أثار الاسبانيين لهذا الهجوم النادر .

وكان لموقف الغرناطيين من مليكهم وتحميله وزر ما وقع على أهالي الحامه ما جعله يعد المدة لاستردادها ، وقد هاجمها ، مرتين ، وكاد بفلح في المرة الثانية لولا ثورة ابنه أبي عبدالله التي أشرفنا اليها .. فقد رأت عائشة أن الفرصة مؤاتية لأن يتسلم ابنها زمام الملك ، فاحتل الحمراء ونادى بنفسه سلطاناً على البلاد . . . وانهارت آمال أبي الحسن - الرجل الشجاع الذي تأمرت الدنيا عليه فلم يستطع أن يواجه هذه الأحداث فلجأ الى اماره مالمقه حيث كانت تحت سيطرة أخيه محمد المروف بالزاجل . . وكان التجاؤم الى اماره أخيه نذير شؤم على مالمقه أيضاً . . فقد حسب فرديناند أكبر حساب لانضمامه الى أخيه ، وخشي أن يثيرها حرباً جديدة عليه فما كان منه إلا أن بعث بجيش كبير الى مالمقه فأحرقها وقطع أشجار زيتونها ودوالي كرومها ودمر قراها وذبح حتى أطفالها وشيوخها . وصمد له - الزاجل مع أخيه أبي الحسن واستطاع أن يهزم جيش فرديناند وايزايلا وأن يكبدها خسارة جسيمة .

ثارت الحمية في نفس أبي عبدالله ملك غرناطة الجديد حين رأى عمه ينازل الاسبانين . فعمد الى مهاجمة الاسبانين ولكن أنى له أن يقوم بالدور الذي لعبه أبوه . . فقد وقع أسيراً بين أيديهم ، ورأى أبو الحسن أن الفرصة مؤاتية ، بعد أن أسر ابنه ، ليتخلى لأخيه الزاجل عن ملك غرناطة .

• • •

بعد أن وقع أبو عبدالله أسيراً بيد الاسبانين أرادوا استغلاله في مطامعهم ، فلم يأخذوه بالشدة ، ولم ينفوه الى جزيرة نائية بل أرادوا أن يكون اداتهم الطيبة في محاربة عمه الزاجل فعادوا به الى غرناطة ومدوه بالمال فكانت شهوة الحكم ووفرة المال عاملين في الاندفاع لقتال عمه ، وقد اقتتلا . . وكان يدعمه من وراء جيش اسباني من قشتاله . وأحس عمه بالخطر فدعا الى الانضمام تحت لوائه وعدم الركون الى الأعداء الطبيعيين . ثم كلفه أن يحكم المملكة مما ، وإن يكون يدأ واحدة ضد فرديناند وايزايلا فلم يأخذ بنصيحة عمه ، فمد للاسبانين بهذه الرعونة ، وهذا الصلف الكاذب ، أن يستولوا على « رنده » وعلى

حصون كثيرة حولها قريبة من مالقة ، ثم على مالقة نفسها . . فكان استيلاء
الاسبانيين عليها مجموعة أبي عبدالله الذي سد المسالك على عمه الذي حاول استردادها
فأخفق . . فاعتبرت جريمته الشنماء وخيائته العظمى نصراً مبيناً ، فتبادل مع فرديناند
وايزابلا التهئة بانتصار جيوشها على عمه الزاجل واستيلائها على عاصمة امارته .

• • •

هنا . . في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ العرب في الأندلس نلتبس
الانهيار بصورة المريعة . . فقد اضطرب الناس لهذا المصير المحزن المد لهم وعرفوا
أن كوارث ضارخة ستزل بهم . .

وبالفعل فلم يكدف فرديناند وايزابلا يشمران بسيطرتهما على الموقف من جميع
أطرافه ، وبهذا التصدع الذي شمل وحدة العرب حتى أخذوا يفرضان سيطرتهم
ويليان ارادتهما ، كان أول بادرة قاما بها أن نقضا العهد الذي أبرماه على أنفسهما . .
وهو أن يؤمنا الناس - بعد أن يتم التسليم - على دينهم وأموالهم وأولادهم . .
والسياسة لا تعرف العهود والمواثيق . . أنها كذب وأخاديع . . لقد فرض
فرديناند على العرب المسلمين العبودية أو الجلاء . . فاختاروا الجلاء .

• • •

وهكذا . . فقد انهار آخر حصن في الدفاع الاسلامي بالنيار مملكة الزاجل
الذي هاجر الى أفريقية بعد أن تهدمت كل آماله وأصبحت مملكته بيد أعدائه نتيجة
لانضمام العدو وخنوعه لارادتهم وسيطرتهم .

لم يبق من مملكة الأندلس المترامية الأطراف سوى غرناطة وبضعة مدن
مجاورة . . وقد ظن أبو عبدالله ، أنه ، وقد عاد الى عرينه في قصر الحمراء . أن
ملكه قد استتب ، وأن حلفاءه سيترفون له بهذا الجليل . .

وفاته أنه كان أداة طيعة لتحقيق مآربهم . . فلم يكذبهم بالملك هنية . .
حتى تنكروا له وقلبوا له ظهر الحن ، ولا سيما بعد أن بارح الزاجل الأندلس ،
واطمئنوا الى أنه لن تقوم في وجههم أي انتفاضة أو تمرد في هذه الفترة . . طلبوا

الى صديقهم أن يسلمهم غرناطة .. فأفاق من غيبوبته .. وتحقق أنه كان في حلم . كيف ؟ لقد ناصب أباه العداء في سبيل العرش .. ثم تحالف مع أعدائه الطبيعيين ضد عمه ؟ ثم ماذا ؟ .. لقد كان من الغباوة بمكان حين جهل هذه الحقائق البدائية .. وهكذا ، فأن تمسك هذا الملك الضعيف بأبهة الحكم هو الذي عجل بانتهيار هذه المملكة ..

لقد ثار الغرناطيون وأبوا التسليم ، جموعهم للدفاع .. وكان على رأسهم فارس عربي شجاع اسمه موسى ابن أبي النزان ، قرر أن يدافع عن المملكة مع اخوانه الثائرين .. حتى النفس الأخير ..

ولكن ما عساهم يفعلون . . أنهم قلة . . وقد سادهم الخوف والهلج والاضطراب .. ومع ذلك فقد تولى هذا القائد الشجاع قيادة الجيش فأبى الاستسلام واشتبك في صراع دام مع جيش فرديناند الذي استطاع أن يدمر بعض حصون غرناطة ، وأن يسيء ويقتل من أقيه من المسلمين . . وبالرغم من ذلك فقد صمد الثوار وردوا الأسبانيين الى ما وراء حدود الامارة واستولوا على بعض الحصون .

ولكن فرديناند عاد يواجه حليفه وصديقه أبي عبدالله بجيش ضخم د هجم على سهل غرناطة في أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال وشرع من جديد يبعث في البلاد بالنار والسيوف ، فأتلف المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة وأحرق المنازل وذبح السكان الآمنين ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل المملكة في اسبانيا ، فاعتصم أهل « فيفا » بالعاصمة وصمدوا للعدو عشر سنوات وناضلوه عن كل شهر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه باستبسال عظيم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ..

غير أنه لم يبق لهم الآن سوى العاصمة التي تحصنوا داخل أسوارها في يأس محض . . وقاوموا العدو ردحا من الزمن ، ونظرا لسهولة المواصلات بين العاصمة والبشرى فكانت ترد المؤونة الى المحصورين من منطقة سيرا نيفادة ، وفي تلك الأثناء أخذ موسى يناوش الأعداء ويقتل منهم يوميا عدداً من أحسن

جنودهم مما أثار مسخط فرديناند الذي أمر بتشديد الحصار على العاصمة فضاقت
أهلها ذرعا بذلك .. ولم يكديحل شهر صفر حتى عمت المجاعة وحاول الأهالي
للمرة الأخيرة الذود عن حريتهم ، غير أن الحامية كان قد أنهمكها الجوع ، فاستقر
رأيهم على التسليم بعد أن فتكت المجاعة بالسكان فتكاً ذريعاً فعلنا فيهم ما لم تعمله القوة
المغيرة طوال هذه السنين .. وفي الحال أرسلوا وفداً الى معسكر قشتاله لوضع
شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على شروط ليست في جانب
المسلمين ، ولم يعترض على هذا الاذعان . والتسليم غير القائد الشجاع موسى الذي
حذرهم من الاعتماد على عهود القشتاليين الكاذبة .. وحرصهم على أن يهبوا دفعة
واحدة لفك الحصار ، وقد خاطبهم بقوله « أن الموت أعذب من الذل والأسار ..
وأن من المحال أن يفى القشتاليون بوعودهم لأنهم متيئون للبطش بالمسلمين .. ثم قال :
« أن الموت في ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من اهانة وتحقير ، ومن
اذلال ونهب وتدنيس للجوامع وانتهاك لشرف النساء » ، ثم ختم كلامه قائلاً ، سيكون
مصيبنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم ان يستأصلوا
شأفتنا .. ولما رأى موسى أن كلماته لم تستنض همم المحاصرين الذين جاؤوا ليسلموا
المدينة نظر اليهم نظرة احتقار وامتطي صهوة جواده ثم خرج من باب المدينة لا
يلوى على شيء .. ويقال أنه لاقى في طريقه جماعة من الفرسان المسيحيين ، وكاد
يتقلب عليهم لولا أنه سقط عن ظهر جواده ..
ولكنه مع ذلك أبى أن يستعطفهم ، فظل يعم فيهم وهو جاث على ركبتيه
حتى وهنت قواه فألقى بنفسه في النهر وابتلمته الأمواج على الفور .
وكان المسلمون قد بعثوا بالرسل يستجدون سلطان مصر والروم .. غير
أن مدة الانذار كانت قد مضت دون أن يلبي أحدهم داعي الفوث ، وفي اليوم
الثالث من شهر كانون الثاني سنة ١٤٩٣ استولى ملك قشتاله على غرناطة .. فكانت
لحظة استبدال الصليب بالهلال على قلعة غرناطة من أهول الساعات التي مرت
على المسلمين .. إذ كانت نذيراً بالقضاء على الحياة الفكرية والنشاط الصناعي في
بلاد الأندلس .

بعد هذه المأساة الدامية .. سار أبو عبدالله ، أو ، أبو أبديل ، كما يسميه الاسبان .. سار مع أسرته في الطريق قاصدين البكراس حيث كان ينوي الإقامة .. فلما وصل إلى جبال بادول ألقى نظرة طويلة على غرناطة ثم أجش بالبكاء فقالت له أمه لماذا تذرف الدمع كامرأة على فقد ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل ، وهناك في انداره ، عاش قليلا من الزمن .. غير أن فرديناند رأى في وجوده في اسبانيا خطراً يهدد مملكته .. وفي الحال أمر بنفيه إلى افريقية ، فقصده الأمير البائس مدينة فاس وظل بها حتى وافته منيته سنة ١٥٣٨ (١).

هذه هي سيرة بني الأحمر في الأندلس أجملتها بالاستناد إلى أوثق مصادر التاريخ ، وفيها الكثير من المآسي والمآثر .

وكل ما نرجوه أن تكون قصص التاريخ ، وهذه القصة بالذات غطة لبعض الرؤساء والملوك المستسلمين لشعالة الاستعمار الذين لا هم لهم إلا تمزيق الصف العربي ، والاقناع بين الأخوة العربية ، لتعود لهم السيطرة .. ولن تتكرر هذه المآسي والأمة العربية في نقطة عارمة ، وهي بالمرصاد لكل عميل يبيع نفسه للأجنبي .

(١) مختصر تاريخ العرب والنمذ الاسلامي لسيد امير علي ص ٤٧٠

في قصر الحمراء

٥ شباط ١٩٥٤

ملأت الحمراء نفسي اعتزازاً وأنا - اعتزازاً بما صنعه العرب ، وحزناً وأنا بما اقترفه العرب .

لقد قرأت كثيراً عن الأندلس وعن مدنها الكبرى .. وقرأت أكثر عن قصر الحمراء .. وما كنت أظن ان ما كتبه الكتاتيون وبخه الباحثون الاولون من المبالغة .. حتى اذا قضيت بعض ساعات يومي في هذا القصر .. اتأمل نقوشه وزخارفه .. غرفه وقاعاته ، حدائقه وجنائنه ، ابهاءه وباحاته ، مداخله وساحاته .. نعم ، لم أكد اقضي بعض ساعات يومي في هذا القصر العربي المجيب حتى تحقق لي أن كل ما كتب هو دون الواقع .

والواقع .. ان عبقرية العربي تتجلى هنا في اكمل صورها ..

فهذه النقوش العربية التي خللت مع الأجيال .. وهذه الجدران الموهبة بالزخارف المذهبية الرائعة التي تثير العجب وتأخذ بمجامع القلب والعين - انها تعطي ابلغ صورة عن الذهن العربي الذي كانت له يد وأي يد في صنع العبقريات

ان الوصف لا يعني .. ولا بد لمن يريد أن يتعرف الى قصور الحمراء - الى تراويقها وزخارفها - الا ان يحج الى الحمراء

وحين تقذف به الاقدار الى تلك الديار ، ويطوف بتلك الامكنة سيبيكي..
ولن يستطيع العربي مها كان عضي الدمع إلا ان يذرف الدموع سخيه حين يحتلج
في نفسه هذا السؤال المثير :
كيف تخلّى الاجداد عن هذه الاجداد ؟

...

لقد فتح العرب الأندلس بقوة ايمانهم .. وعاشوا فترات طويلة في حياة
التقشف لا يهتمهم إلا اداء رسالة الفتح بمعناها الواسع حتى اذا خلدوا الى الدعة
والاطمئنان .. الى حياة اللهو والعبث .. الى التناحر والتنافس على الامارات
أو على كراشي الحكم كما نقول اليوم كان مصيرهم الانهيار والاضمحلال
والتهطلي عن هذه الدنيا الجميلة التي افتتحوها بقوة الايمان ..

...

كان صباح ذلك اليوم الذي زرت فيه قصر الحمراء من الايام العاصفة
الباردة .. وكانت ذرات الثلج تتناثر في الفضاء .. وما كانت برودة الطقس ولا
انحصار الثلوج لتحولا دون زيارة هذه الاماكن التي جئت من مسافات بعيدة .. وما
كانت اسبانيا ، على ما فيها من روائع ، لتجذبني لولا الاندلس لولا غرناطة
وقرطبة واشبيلية وطليطلة وما ضمته في اكنافها من اجداد لولا قصر الحمراء
وجنة الريف ..

ولم امتط السيارة التي اعدت للركب بل حرصت ان التخيّط في هذه
الدروب على قدمي لأتمتع أكثر بجواد غرناطة وشوارعها ، بأزقتها ومنعطفاتها ،
ببيوتهما وناسها ، لاستمتع أكثر بجو المدينة التي كتبت عنها المجلدات لا شيء إلا
لأنها تضم قصر الحمراء ، وقد كانت في الماضي عاصمة بني الأحمر .. وما كنت في
حاجة الى السيارة وقد كانت فندق « الحمراء » Hotel Alhamrra الذي
حالت فيه غير بعيد عن القصر . وهو ، وقد بني على الطراز العربي ، ملتقى
الزوار من اطراف الدنيا الذين يحجون الى كراناد « غرناطة » لزيارة قصر
الحمراء .

والطريق المؤدية الى القصر قامت على جوانبها الاشجار الباسقة ، وهي صامدة لعواصف الطبيعة كأنها كوكبة من الفرسان المغاوير .. ومع اننا في فصل الشتاء .. ومع أن الطبيعة متجهمة اوجه ، عابسة ، مكفهرة ، وليس ثمة نفحات من فصل الربيع توقظ الاحاسيس ، فقد شعرت اني في فصل الربيع ، وان الدنيا فرحة ، مبتسمة تزغرد معي من الاعماق ..

أيسكون الشعور بزيارة الاندلس وتحقيق الحلم الذي راودني طويلا بوصولي الى عتبة « فردوسنا المفقود » هو الذي قلب شتائي ربيعاً ..
ربما كان هذا هو الباعث الأكبر ،

فقد كان لاختضار اشجار السرو والمناوليا والليمون والبرتقال أثر وأي أثر في نفسي فشعرت اني في الفيحاء - في دمشق الشام أو في طرابلس الشام .. لقد شمت رائحة بلادي ، - وغرناطة قطعة من وطني العربي القديم - ، وكثيراً ما شبهها الكتاب بدمشق الشام لكثرة حدائقها ووفرة مياهها وطرار بيوتها وصحون دورها وبركها واحواضها وفسقياتها ..

ولقد تغلغلت في دروب هذه الجنة الفيحاء .. ولا أقول الوارفة الظلال لأنني في فصل الشتاء .. بل كانت نضرتها تتحمل لي كآني في قلب واحة من الزمرد .. عشت فترات مع الماضي في هذه الاخيلة الحلوة وانا في طريقي الى قصر أطل على جنة المريف ، وعلى جبال غرناطة ، وأوديتها وبساتينها وحدائقها ..

...

انني اليوم في كنف الحراء
أقلعة هي أم قصر أم عدة قصور
انها قلعة وقصور وحدائق قامت على هضبات تحيط بها قمم عالية صعبة المنحدر ، تتدفق في سفحها الشمالي امواه نهر حدر و قبيل التقائه بنهر الثلج ، وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر ..

وقد سميت « الحراء » ، لأن اسوارها وجدرانها تضرب الى الحمرة .. وربما جاءت هذه التسمية من لون التربة التي قامت عليها ، ومعظمها مبني من الخزف

والكلس والحصباء ..

والاثريون ، والمهندسون المماريون بصورة خاصة ، في حسيره شديده من صمود هذا القصر طوال هذه السنين دون ان يهدم مع انه قد بني من مواد سريعة العطب

يقول شترزيكو وفسكي : « انه طراز وحده لا يماثله قصر اسلامي آخر يرجع الى مثل هذا التاريخ المتقدم مع بقائه في حالة جيدة الى حد ما ، وقد شيدت اسواره من الخليط المعروف بالبايا - مزيج من الصلصال والجير والحصباء - واقامت عقود وقبواته ودعائمه واسقفه من الخشب ومواد البناء المصبوبة مما يبنى عن طريقة أخرى في الصنعة ، وانشاء من مادة سريعة العطب مما يجعلنا نجب كيف تيسر لهذا القصر أن يقاوم البلى حتى يومنا هذا (١) »

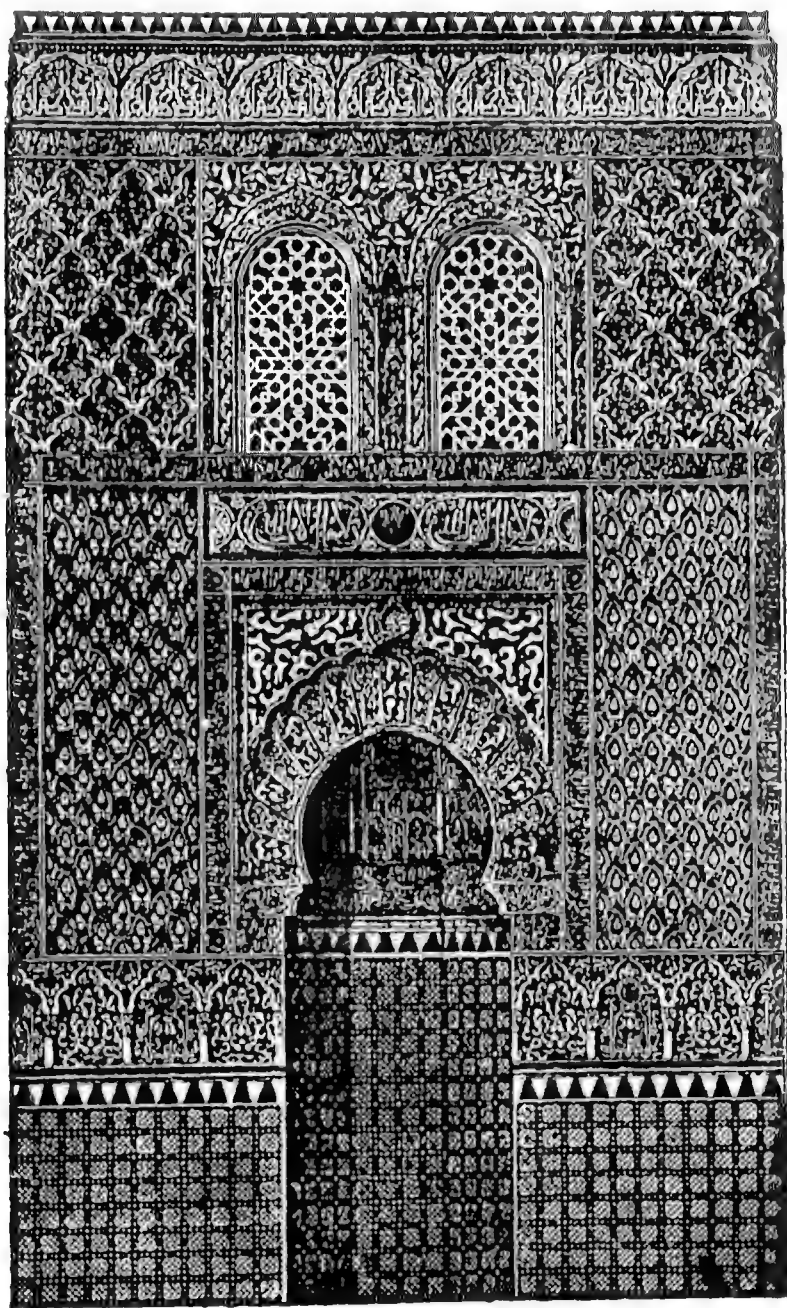
ويقول غوستاف لوبون : « لقد بلغ خصب الفن الاندلسي غايته في قصر الحمراء ، وعلى ما فيه من غلو في الزخرف تراه وليد الذوق الرفيع الذي لا يتجلى مثله في آثار دور منحت .. ومع أن جدر قصر الحمراء مصنوعة من مزيج من الكلص والرمل والصلصال والحصباء لا من الحجارة المنحوتة ، ومع أن زخارفه من الجص المضروب في القوالب تجده متيناً الى الغاية ، فقد قاوم تقلبات الجو مدة خمسة قرون من غير أن يحتاج الى ترميم ذي بال (٢) ...

...

دخلت قصر الحمراء وفي ذهني حشد من المعلومات عن ماضيه وحاضره - عن بهو السباع وقاعة السفراء ، عن بهو البركة وقاعة الأخوين ، عن قاعة العدل وقاعة بني سراج .. ويتكوّن قصر الحمراء من هذه القصور والقاعات .. وقد اجتزت المدخل الى باب العدل ، وهو مدخل تعلوه قبة ضخمة برتقالية اللون

(١) دثرة المعارف الاسلامية . المجلد الثالث ص ٩٥

(٢) حضارة العرب ص ٥٦٨



عراق مسجد قزو الجراء

تضرب الى الحمرة .. والمدخل ذو اروقعة تعصف بها الرياح . ويجس الزائر بالوحشة والفراغ خلوا قاعاته وابهائه من أولئك القضاة الذين كانوا يجلسون للحكم بالعدل بين الناس .

وبرج العدل ، أو باب دار العدل ، هو أحد الابراج الاربعة التي يتكون منها مدخل الحمراء .. وقد بنيت واجهته من عقدين على شكل حدوة الفرس . ولفت نظري ، وأنا في الهو ، كتابة عربية فوقفت اقرأ وادون في دفثري هذه الكلمات التي تعبت في فك طلاسمها .. لقد نقش ما يلي :

« امر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة ، اسعد الله به شريعة الاسلام ، كما جعله فخراً باقياً على الالام ، مولانا امير السلطان المجاهد العادل ابو الحجاج يوسف ابن السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد بن نصر كافي الله في الاسلام صنائعه الزكية ، وتقبل اعماله الجهادية ، فشيء ذلك في شهر المولد العظيم من عام تسعة واربعين وسبعمائة ، جعله عدة وافية ، وكتب في الاعمال الصالحة الباقية »
والنف حولي رفاق السفر .. وهم خليط من الامريكان والكنديين ..
وأخذوا يحدقون بما ادونه ، وبكتابة بدت لهم جيد غريبة .. من اليمين الى اليسار ، فأدركوا انني عربي .. ازهو باعمال اجدادي .. أي أزهو بالماضي دون الحاضر !

- ٢ -

من برج العدل الذي تقرأ على تاج العمود الايمن « الحمد لله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله » كما تقرأ على تاج العمود الايسر : لا آله الا الله .. محمد رسول الله .
- من برج العدل الى قصر شارل الخامس الملك الاسباني الذي حاول ، حين تقلص ملك العرب ، ان يححو روائع تلك الآثار فبنى قصره على انقاض قصر من قصور الحمراء . فكان عمله وصمة في جبين التاريخ .. ولم يكتف بذلك بل حول بعض المساجد الاثرية في قلب القصر الى بيع وكنائس .. وقد اثار هذه الاعمال الكثيرين من المستشرقين ورجالات الفنون وكبار المؤرخين فكتبوا المطولات منتقدين بمرارة ، ومننديين ببشاعة هذا العمل .

يقول المستشرق الالماني شاده :

« لقد حوّل شارل الخامس المسجد الاصفر الذي يلاصق قاعة الرياح الى بيعة .. وشوّه المسكن المكي القديم فهدم الجناح الجنوبي الذي يرجح أنه كان يضم كفة الباب الرئيسية . بل صنع ما هو اشنع من ذلك فأقام مكانه بناءً على طراز عصر النهضة ، له واجهة انيقة المنظر تناقض تمام المناقضة الاسوار الخارجية للقصر القديم التي كانت تمتاز ببساطة منظرها ، وثمة عمل آخر من أعمال تخريب الآثار القديمة .. ذلك أن مسجد محمد الثالث هدم وأقيم مكانه كنيسة القديسة Santa Maria التي اضطلع بإنشائها جون دوفيجيا عام ١٥٨١ (١) »

وقال شترزيكو فسكي في هذا الصدد :

« وليس لدينا ما يحملنا على الاسف لفقدان المآثر والقاعات الاخرى اللهم إلا المسجد الذي هدمه شارل الخامس (٢) ..

والمع غوستاف لوبون الى هذه الاثام المنكرة بقوله :

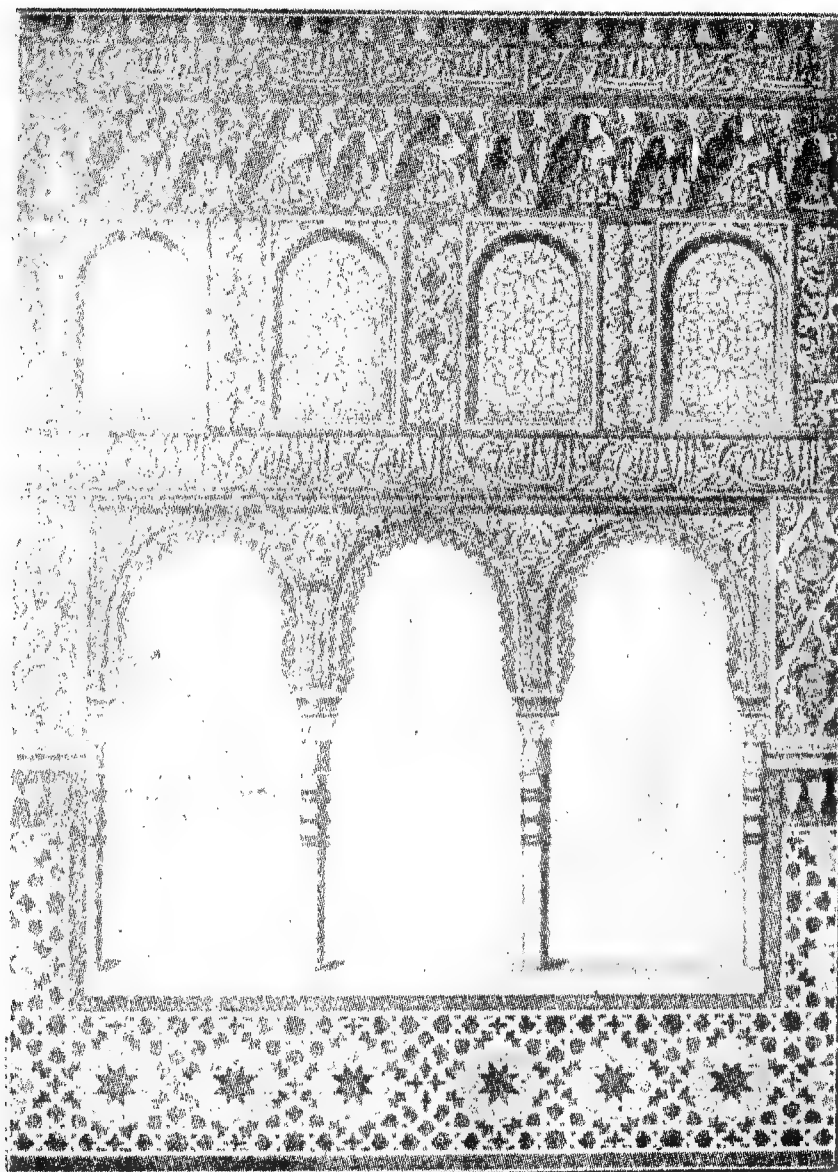
« وقد قصّ جميع رجال الفن الذين زاروا قصر الحمراء العجيب ، والألم ملء قلوبهم ، ما لا يكاد يصدق من انباء التخريب الفظيع الذي أحدثته الاسبان فيه .. وقد هدم شارلكن قسماً مهماً منه ، لينشئ مكانه بناءً ثقيلاً .. وقد عدته جميع الحكومات الاسبانية مجموعة من الخرائب القديمة التي لا تنفع لغير الاستفادة من موادها (٣) »

وهكذا ، فإن القصر الذي بناه شارل الخامس على انقاض قصر من قصور الحمراء كان وصمة في جبين هذه اللؤلؤة الغالية في روائع المآثر الاسلامية .

(١) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٨ ص ٨٧

(٢) » » » » » ص ٩٥

(٣) حضارة العرب ص ٣٢٠



زخارف إيوان في قصر الحمراء

ومرّت فترات طويلة تمرّض القصر لأيدي العائدين الناهيين على مرأى
ومسمع من رجال الحكومة الذين ما كانوا يقعدوا ما يضمه القصر من
نفائس .

يقول مسيو دافيليه في كتابه عن اسبانيا :
« لقد بيعت الواح الميناء التي كانت تزين ردهاء الحمراء منذ بضعة سنين
ليستبدل الملائط بها ، وقد بيع باب مسجدتها النحاسي كشيء عتيق ! وقد
حرق منها ابواب ردهاء سراج الخشبية الانيقة كما يحرق الحطب .. ثم قد
اتخذ من ردهائها الجميلة سجون للمجرمين ، ومخازن للبيرة بعد أن بيع ما امكن
نزعة منها (١) ..

وما يزال الاثريون يرون اثر هذا التشويه الى يومنا هذا كلما زاروا القصر ..
ويقال أن الحكومة الاسبانية مستعمد - بعد أن ثارت ثائرة كل منرم بالفن من
كتاب ومؤرخين ومهندسين ومعمارين واثريين - أنها مستعمد الى هدم قصر شارل
الخامس واعادته الى ما كان عليه في عهد بني الاحمر ليم التناقض .. ولكن
هيهات !

- ٣ -

لقد شعرت وأنا في قصر شارل الخامس بالانقباض ، فتركته أعدو الى
قاعة الريحان أو الى صحن البركة .. وما كدت اتوسط الباحة الكبرى حتى شعرت
في التنوؤس ان انقباض النفس قد زالني ..

وباحة قاعة الريحان ، كبيرة واسعة ، يتراوح طولها بين الثلاثين
والاربعين متراً ، وعرضها في حدود العشرين متراً ، يبدو جمالها بحوضها المستطيل
الذي يتوسطها ، وقد قامت حوله شجيرات الريحان أو شجيرات من « الشمشير »
الذي يحاكي الريحان .. وأول ما يلفت نظر الزائر هذه العقود العربية التي استندت
الى عمد مرمرية هي ركائز المقاصير ما تزال بهجة للناظرين

(١) حضارة العرب ض ٣٢٠

« وفي شمال هذا الصحن - صحن البركة - سبعة عقود تامة الاستدارة اكبرها العقد الوسط ، عليها شرفات ومقاصير تحار العقول في وصفها ، يماثلها ، في الجنوب ، سبعة عقود أخرى فوق أعمدة رشيقة تهدم ما فوقها لبناء قصر شارل الخامس خلفها .

وقد زخرفت العقود والمساحة التي تعلوها بالخص المزخرف بفروع نباتية وانصاف اوراق النخيل بدقة فائقة ، كما تنشر عليها كتابات عربية . تنهي نهاياتها بزهور على ارضية نباتية ، ويحيط بعقود الابواب والنوافذ شريط من الفسيفساء تكررت فيها آيات قرآنية وكتابات دعائية مثل « نصر من الله وفتح قريب » ، « وبشر المؤمنين » ، كما كتب في بطن العقد الاوسط « عز لمولانا ابي عبدالله » وعلى العقود الصغيرة « محمد رسول الله ، ولا اله الا الله » ويعلو هذه العقود بلاطات جصية مخزمة ينفذ منها الضو الى داخل العقود (١) ،

- ٤ -

من قاعة الريحان الى قاعة السفراء ، وهي القاعة التي كان يستقبل فيها ملوك بني الأحمر سفراء الافرنج ، انشأها ابو الحجاج يوسف بن الاحمر . دخلنا فناءها متأملين ، وقد بهرتنا زخارفها وروعة نقوشها المذهبة : انها شيء يشده العقل . . فحيثما تنقل الانسان تراء له دقة الفن العربي ، سواء بهذه النقوش أو العقود أو المقرنصات أو الكتابات العربية التي ازدانت بها الجدران والمداخل والسقوف . . كل شيء قد لعبت فيه يد الفن بمهارة عجيبة ودقة فريدة .

ومن الاشمار التي قرأناها في قاعة السفراء القطعة الآتية :

انا محلا عروس	ذات حسن وكحل
فانظر الابريق تعرف	فضل صدقي في مقالي
واعتر تاجي تجده	مشبه تاج الهلال

(١) محمد رجب البيلي . المتكطف مجلد ١١٢ ج ٥ ص

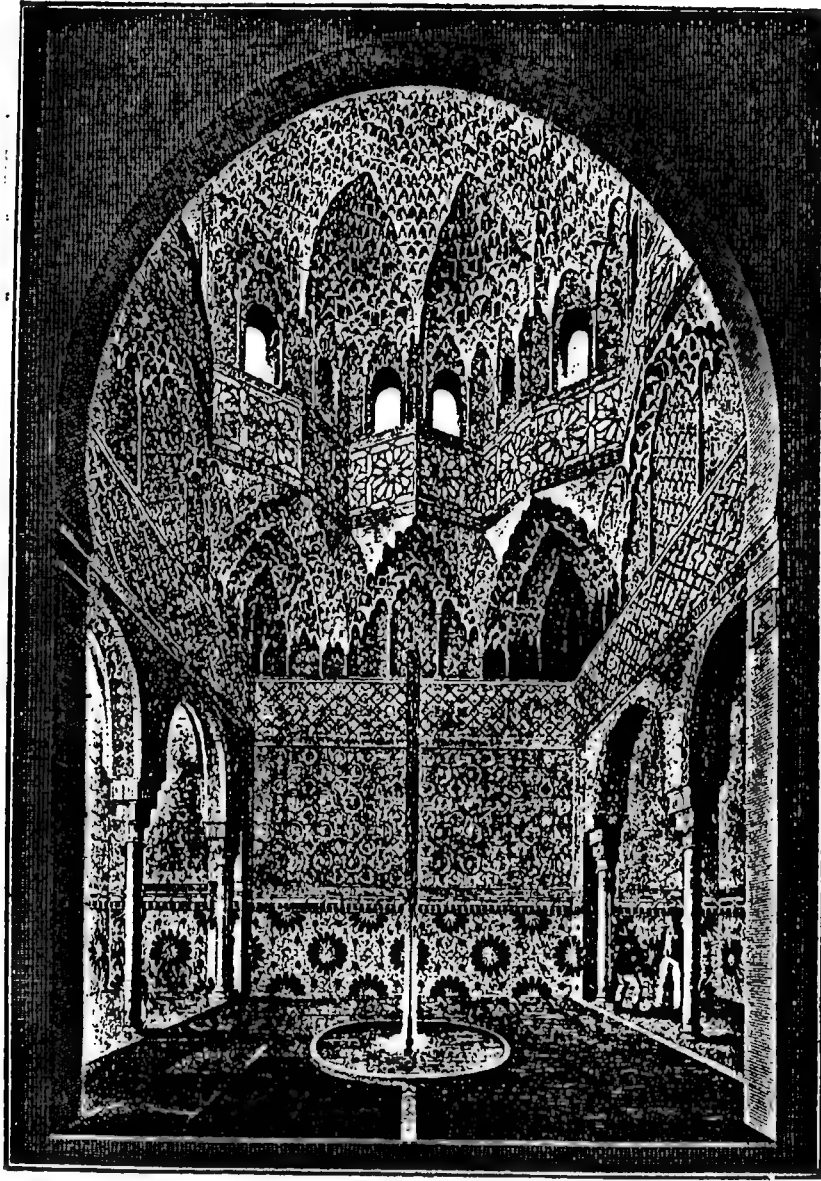
وإن نصر شمس فلك في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن آمنأ وقت الزوال
ولكن وا اسفاه .. فان حدس الشاعر لم يصدق فلم يبق ابن نصر في رفعة
وجلال ، وان ملكه الذي تمتى له شاعره الخلود قد زال!

- ٥ -

تركنا قاعة السفراء الى بهو السباع ، وهو الذي كثر الحديث عنه .. فما
من زائر في الماضي أو في الحاضر الاخص هذا البهو بالكلام الكثير ..
فالواقع ، انه اعظم ابهاء قصر الحمراء .. يبلغ طوله ٢٠٠ قدم وعرضه
٥٠ ، وأنت حين تسير بين أروقته التي قامت على أكثر من مائة عمود مرمرى
تقف مشدوها بتناسقها الجميل وبقودها ذات التخاريم الزخرفة البديعة . . ولعل
اظهر ما في هذا البهو النافورة التي تحمل اثني عشر اسداً من المرمر الابيض ،
يقذف كل أسد المياه من انبوب في فيه . وقد نحتت هذه الاسود الى حد ما على
طراز رؤوس الحيوانات ، ونقشت عليها كتابات كوفية من شعر ابن زمرّك ،
وإن زمرّك هذا آخر علم من أعلام الشعر الاندلسي ، عاش في ظلال بني الأحمر .
وكان معنياً ، الى جانب المدائح التي كان يقولها في السلاطين ، بقرض المقطعات
الوصفية ، وخاصة في وصفه الحمراء ، وقصورها وبساتينها والحفلات التي كانت
تقام في قصورها ، وشعره فيها يبدو وكأنه « انغام راقصة متدفقة ، ترقص
على وقعها الزهور والنجوم ، وتفيض بالأخيلة والتشبيهات المتشابكة ، وأن من
يعرف هذه القصود ليجد في ذلك الشعر ، كما قال المستشرق الاسباني غومس
نصيراً بديعاً .. من شعره المنقوش على بركة صحن الاسود وعلى جدران بهو
« الاخوين » قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار الملك التي ابتناها السلطان محمد
الغني بالله .

سل الافق بالزهر الكواكب حالياً
فأني قد أودعته شرح حالياً

وحملتُ معتل النسيم امانة
 قطعتُ بها عمر الزمان امانيا
 تبارك من اعطى الامام محمداً
 مغاني زانت بالجمال المغانيا
 والا فهذا الروض فيه بدائع
 ابي الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
 ومنحوتة من لؤلؤ شفاء نورها
 تحلّى برفض الجان النواحيا
 يذوب لجين سأل بين جواهر
 عدا مثلها في الحسن ايض صافيا
 تشابه جار للعيون بحامد
 فلم ندر أيا منها كان جاريا
 الم تر ان الماء تجري بصفحها
 ولكنها مدت عليه الحجاريا
 كمثل محب فاص بالدمع جفنه
 وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
 وهل هي في التحقيق غير غمامة
 تفيض الى أسد الجهاد الاياديا
 فيا من رأى الاساد وهي روايض
 عداها الحيا عن أن تكون عواديا
 ويا وارث الانصار لا عن كلاله
 تراث جلال تستخف الرواسيا
 عليك سلام الله فاسلم مخلصاً
 تجدد اعياداً وتبلي اعاديا
 . . .



قاعة البركة في قصر الجواهر

والحق ، ان الانسان ايعجز ، كما قال جبرول دور انجه ، عن بيان ما يشعر به حين يمر من قاعة البركة ويدخل في قاعة الاسود فيرى فيها الاروقة التي تربها الاقواس المنوَّعة المزخرفة بالنقوش الزهرة والزخارف المتدلية المقرنصات والتخاريم التي كانت ذهبية ملونة ، وتقع عينه على غابة من الاعمدة الهيف التي وضع بعضها منفرداً ، وبعضها مزدوجاً ، وبعضها مجتمعاً على شكل بديع . والى يبصر من خلالها النماز مياه فسقية الاسود المتدفقة ..
ولم نشاهد المياه المتدفقة لان الصقيع كان قد جمدها وأضفى عليها نثاراً من قطع الثلج فجاءت كقضبان من اللجين ..

- ٦ -

من هو السباع الى قاعة الاختين التي تطل على حدائق الملكة أو حدائق الريتون .. ثم الى قاعة الملكة . وهي القاعة التي كانت تسكنها الاميرة عائشة زوج السلطان ابي الحسن - وهذه الاميرة قصة سريعة ذات ذيول - ، وتعد هذه القاعة كقاعة الاختين من اجزاء القصر الخاصة بالملك وحريره ، وتتصل من ثلاث جهات بثلاث مقصورات صغيرة اعدت للنوم ، ولا يداني هذه القاعة أي جزء من أجزاء الحمار لجمالها وتناسق زخارفها الجصية الدقيقة ..
ثم هناك قاعة بني سراح التي كان فيها مصرعهم ، وهي أيضاً كسائر قاعات القصر بجمالها وروعة زخارفها .

ويقودنا الدليل الى الحمامات الملكية ، وتتألف من قاعة كبيرة مغطاة بقبة كبيرة ذات اعمار ونجوم اقيمت على عقود رشيقة يحيط بها شرفة اعدت لجوقة موسيقية من الحسان لتشغف اذان المستحبين الذين يستريحون من عناء الاستحمام . ولم نخل هذه الحمامات ايضاً من الزخارف والنقوش وآيات من الشعر ترز الى الهناء التي يحسها الانسان بعد دخوله هذه الحمامات ..

- ٧ -

من القصور والقاعات والردهات الى حدائق القصر - الى «جنة العريف»

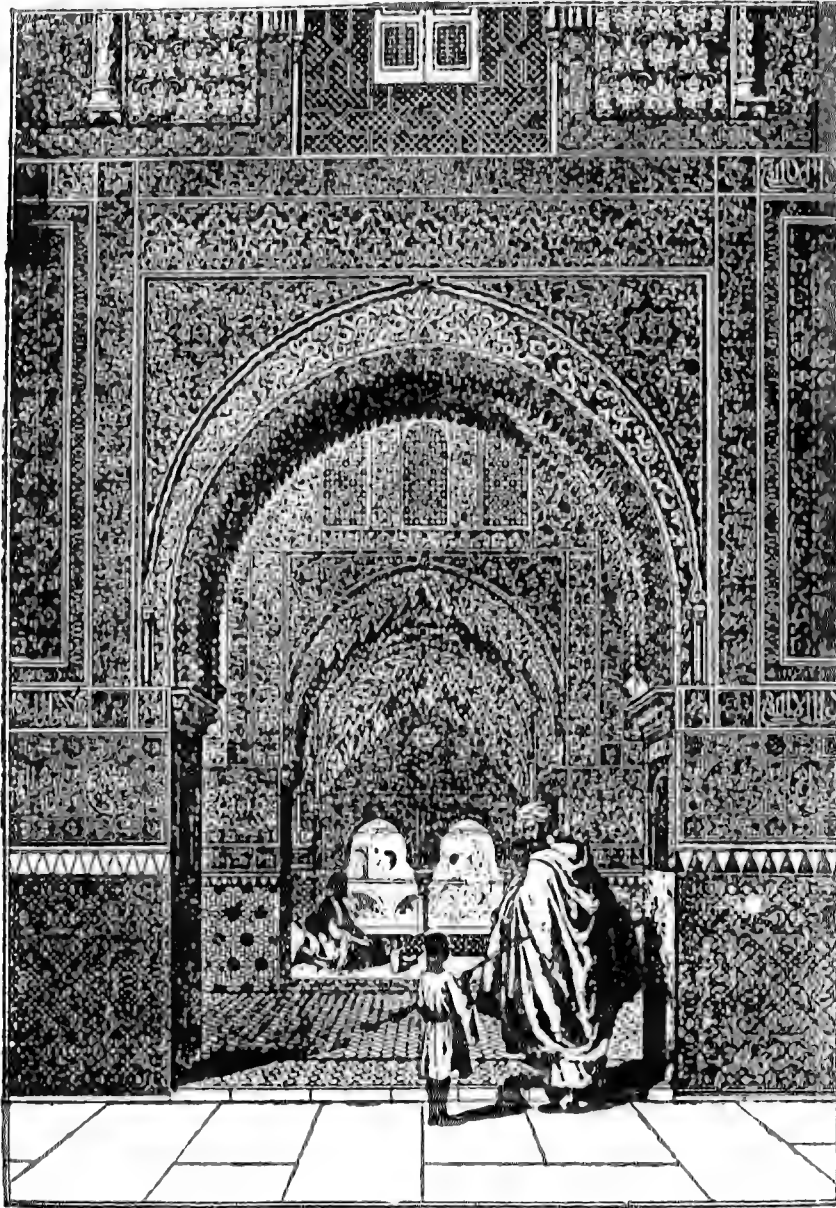
وقد كانت غرناطة ، في عهد العرب ، مليئة بالجنائن والجنّات .. وكل من قرأ تاريخ الأندلس يعلم انه كان لبني الاحمر في غرناطة في اوائل المائة الثامنة ما يناهز مائتي جنة كجنة النخلة السفلى . وجنة النخلة العليا ، وجنة ابن عمران ، وجنة العرض ، وجنة الحرف وجنة العريف وهي اشهر تلك الجنائن واخذها لالتصاقها بقصور بني الاحمر .

حقاً أن العرب الذين اقاموا هذا القصر بجناته الوارفة قد أرادوا أن يجعلوا منه صورة للنعيم في هذه الدنيا الفانية - صورة تشابه الجنة التي وعد بها المتقون .. وقد ذهبوا - ذهب الصالحون والطيحون - وظلّت جنتهم تهزأ بالامال الكاذبة التي اعتمدوها في خلود ايامهم وخلود ملكهم وسلطانهم . نعم ذهبوا ولم يبق إلا التلاوين والزخارف والنقوش الموشاة التي تتمثل على اضواثها العبقريّة العربية اصدق تمثيل .

من قصر الى قصر ، ومن باحة للرقص والغناء الى احواض للسباحة والاستحمام .. الى مخادع للقصف والاهو .. الى جنّات قطوفها دانية .. هكذا عاش الذين نعموا بقصور جنة العريف .

لقد مستني القشعريرة ، حين رأيت الدليل الاسباني يشرح للامريكان ولغير الامريكان روائع هذه الجنة التي انشأها اجدادي العرب - مستني القشعريرة فزهوت ثم بكيت : بكيت ملكاً عريضاً قد أضاعته الخزازات والعصبيات والتهافت على صولجان الحكم وبريق الرئاسات ..

وسرت انتقل في أطراف هذه الجنة .. وهي « جوسق القصر الاكبر » ، يصور ظاهره بساطة الفن الشرقي « حديقة كبرى مستطيلة الشكل ، تتوسطها بركة ضيقة ، يحفّ بأحد طرفيها رواق مكشوف . ويحيط بها وبالقصر بستان كبير له سور عال فيه باب كبير ، ويتدرج البستان على ثلاث مناطق تعلو كل منها الأخرى ببضعة امتار يصعد اليها بواسطة ادراج من الرخام ، في جوانبها نافورات ماء اذا فتحت ينبعث منها الماء على شكل اقواس من البلور تنتهي الى وسط البحيرة .



منظر التقط في قاعة الاختين بقصر الحمراء

بانغام شجيرة (١) .

وجنة العريف مليئة بأشجار الليمون والنارنج ، وقد راق لي ان اقتطف
نارنجة فاحتفظت بها خلال الرحلة اشم عبقها - عبق تلك الجنة التي انشأها بنو
الاحمر لتكون صورة من فيحاء دمشق او فيحاء طرابلس وما تزال المعالم والصور
هي هي لم تتبدل مع مرور الزمن .

- ٨ -

من جنة العريف الى القصر

عدت اليه اقضي بعض ساعات يومي وحدي بعد أن تخلصت من ثرثرة
الدليل - عدت اتأمل بأحائه وقصوره ، نقوشه وزحارفه وأقرأ الآيات . والاشعار
التي نقشها الملوك البناة لتكون عظة لهم والاحفاد ولتجذرهم من التدهور
والانزلاق ، ولكن العظة لم تلامس شغاف القلوب ، ويا للأسف ، فكانت المأساة
التي ادمت القلوب وهزت النفوس وانزلت الدموع سخية من العيون ..

• • •

ان الحمراء من أجداد العرب الضائعه .. وهي تثير فينا الكثير من الذكريات ..
وهي اليوم موضع استغلال عظيم للأسباب ، يقصدها الناس من اطراف الدنيا ،
ويقضون ازاء روائعها مشدوهين ، وقد وقف الكاتب الأمريكي الشهير ارفنج
واشنطن حين رأى القصر ورأى جنة العريف وقفة الحائر المشدوه .. جاءها زائراً
ليقضي في ظلالها اسبوعاً أو اسبوعين فقضى سنتين وكتب كتابه الشهير « حكايات
عن قصر الحمراء » الذي يروي اقاصيص عرب الاندلس واساطيرهم بأسلوب فذ
يدل على عبقرية مشعة .

وزار غوستاف لوبون القصر وتلّى كثيراً مما تركه العرب في الاندلس
من حضارة وعلم وفن فأثمرت هذه الزيارة فصلاً رائعة من كتابه حضارة العرب
ووقف فيكتور هوغو يناجي القصر بروحه الشعرية :
ايتها الحمراء .. ايتها الحمراء

(١) رحلة الاندلس للنبوتي ص ٧٨

ايها القصر الذي زينتهك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام
ايها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالازهار والاعصان حيناً تمكس
اشعة القمر على جدرك وقناطرك العربية بسمع لك في الليل صوت يسحر الالباب.
وغير فيكتور هوغو ، وغير غوستاف لوبون ، من كبار الادباء والشعراء
الاجانب قد أذهلتهم روائع هذا القصر فكتبوا عنه الكثير واشادوا بعظمته .

• • •

انا في هذا التراث الذي ضاع من ايدينا مفاخر كثيرة .. ان دلت على
شيء فعلى قوة العبقرية العربية المبدعة الخاقه .. فهل يأتي اليوم الذي يعود فيه
العرب الى البناء . ويفيدون من عظات الماضي فلا يفرطون بما تركه الاجداد
نرجو ذلك . .

ولكن كيف يكون ذلك وليس انا ايمان اجدادنا الذين بنوا ذلك الملك
العريض ، لقد تركت القصر وأنا اردد مع الشاعر - والالم يعصر قلبي - قوله :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا

ابن سـكـانك المراز علينا ؟

فأجابت : هنا اقاموا قليلا

ثم ساروا .. ولست أعلم أيننا ؟

وَوَلَّاح

١٩٥٤ / ٢ / ٦

اودعك يا غرناطة لا كما ودعك عبدالله الصغير
اودعك لا بالدموع . فقد سكب العرب عليك الكثير من الدموع بل بهذا
الحس الذي أريد أن يوقظ كل عربي لنسترجع مجد الأجداد ، بل ليكون لنا من
وراء ذلك عظة للاحتفاظ بالتراث الباقي مما تركه الأجداد .
تركت غرناطة هذا الصباح وهي شبه مغفية ، تفرها الثلوج التي احالتها
عروسا مزهوة بشبابها البيضاء ..
تركت غرناطة فتركت قلبي عندها -- عند فقاتها اللعوب ، عند أجمل
الاندلسيات على الإطلاق ، عند زينة الفتيات والمهدرات - اريد عند « جنة العريف »
وقصورها الشامخات ، عند قصر الحمراء ، هذا المرح المرء الذي لعبت في تكوينه
الأيدي والاذواق والعقول ..
إن الزائر لا يشبع من التحديق في تراويقه ، ولا في زخارفه ، ولا في
نقوشه ، ولا في تلاوينه ولا في قاعاته وابهائه ومقصوراته وحدائقه واحواضه
حيثما التفت الانسان يحسّ بالجمال ، يلمس ترف الفن ، يدهش بما وصل اليه
الذوق العربي - الذوق خلق اعاجيب هذه الفنون.

نعم ، تركت غرناطة وكأني تركت ذاتي في افنائها ..
 ان القلب ليهفو اليها ، وان النفس لتحنّ ، وأن الإنسان العربي ليشعر
 بالزهو والفخر وبالدموع والألم .
 لقدوددت أن امكث طويلاً لأحدق النظر في كل جدار ، وفي كل قنطرة ،
 وفي كل قوس ، ولأنأمل بصمت وخشوع زخارف الفن في كل حجرة ، وكل تخريم .
 ودعتها وأنا مفروق الدموع
 شعرت كأني اودّع اعز حبيب لي ، أثير الى نفسي
 وأي حبيب أعز على النفس واحب الى القلب من هذه التي يتمثل فيها
 المجد العربي - محمد كريم يزهو بنفسه ويطاول المصور ..
 أن الناس تحجّ من أقطار الدنيا الى هذا القصر ..
 وانه ، والله ، لموضع الحجيج
 وأقسم اني سأعود هذا الحجج .. وأرجو الا تتحول الأقدار دون الوفاء هذا القسم ..
 ما سحابة يوم .. وما امسوع ، وما شهر يقضيه الانسان في قصر الحمراء ..
 انه يحتاج الى سنة واكثر من سنة ..
 قصر الحمراء كنز من كنوز الفن نحمد الله ان العصبية الدينية والارهاصات
 المذهبية والفورات القومية والرعنات الغوغائية لم تحطم زخارف هذا القصر في
 ساعات الهوس والبغضاء والحماسة الكاثوليكية والالّ لكن العرب قد خسروا ، كما
 خسروا الاسبان والحضارة الانسانية اعظم آثار الدنيا ..
 لقد تحولت الجوامع الى كهائنس - أي الى معابد يذكر فيها اسم الله .. وقد
 يشفع بذلك ذكر اسم الله في هذه المعابد .. اما أن يتحول القصر الى ثكنة مثلاً
 فيعتبر أكبر ضربة تنزل في صميم الحضارة ..
 ثمانمائة سنة مرّت على هذا القصر ولا يزال كالعروس يزهو بروائه وجماله ،
 بالوانه ودقيق صنعه .

انه مثال حيّ لجمال الفن العربي الذي بهر النظر
 اعود فاقول لقد ودّعت غرناطة ولكنني اودعتها قلبي - اودعته عند قصرها

المعجب ، وسأظل أذكر هذه الزيارة الخاطفة مدى العمر ...
وما من زائر للحمراء الا ويذكر ، والدمع ينهمر من عينيه - يذكر وقفة
ابي عبدالله الصغير آخر ملوك العرب على الاندلس ، حين وقف على النلة التي أطلق
عليها الاسبان « تلة الدموع » يودّع غرناطة وهي تتوارى عن عينيه فالقى نظرة
أخيرة على قصر الحمراء-نظرة مغمورة بالدمع ، محفوفة بالتهنيدات فودّع بهذه النظرة
الدائمة والحسرة اللاذعة مجد العرب الضائع وفردوسهم المفقود - وهذا ما صورّه
صديقي الشاعر حسن كامل الصيرفي في قصيدته التي أخذت أردّد بعض أبياتها وأنا
ابتعد عن أرض غرناطة الحبيبة وقصرها المنيف والتي يقول فيها :

وداعاً جنّتي وقرار قدسي
ومظهر عزّي وجلال أمسي
وما أنا غير آدم هام يبكّي
على فردوسه في دار بؤس
لقد باع الجنان بغير ذلّ
وبعت أنا الجنان بخفض رأسي
لقد كنت أردد هذه الأبيات وأنا في غمرة من الدموع ، وما زلت حتى
ابتعدت عن غرناطة فاستحالت دموعي جرات في القلب .

من غرناطة الى مالقة

١٩٥٤ / ٢ / ٦

من غرناطة الى مالقة
ان الشمس تشرق من وراء جبال «سارانادا» فتجعل يومنا مشرق الجنبات..
ولما لقه ذكر كثير في تاريخنا الادبي والحربي
وبعتبرها المؤرخون «إحدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين
مرافق البر والبحر .. كثيرة الخيرات والفواكه ، .
قال الرحالة ابن بطوطة : رأيت العنبيات في أسواقها بحساب ثمانية ارطال
بدرهم صغير .. ورومانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا .. وأما التين واللوز
فيجلبان منها ومن احوالها الى بلاد المشرق والمغرب .
وقال : وبمالقة يصنع الفخار المذهب المعجيب ويجلب منها الى اقاصي البلاد..
ومسجدها كبير الساحة كثيرة البركة شهرها ، لا نظير له في الحسن وفيه أشجار
ال نارنج البديعة ..
لا أريد أن اسرد ما كتبه المؤرخون القدماء الذين وصفوها فقد مررت
بهذه الكلمات استطراداً ..
فالواقع ، ان مالقة عروس جميلة واقعة على شاطئ البحر .

قطعنا الطريق بالسيارة بين الجبال المرتفعة والأودية المنخفضة وما زلنا إلى أن وصلنا إلى شاطئ البحر بعد أن نعمنا بالمناظر الخلابة ، مناظر الجبال والأودية المزدهرة بالأشجار المثمرة - بأشجار الزيتون واللوز والكرز والليمون والبرتقال ومزارع القصب ..

ففي كل بقعة تتراءى صور من لبنان ..
هنا نحن اولاء بالقرب من قرية في ذيل الجبل يرى المسافر في ملاحظها مناظر من جونية على شاطئ البحر ..

فيوت الفلاحين وطراز حياتهم ومزارعهم تكاد تشابه بعض الشبه بيوت الفلاحين اللبنانيين ، وما زالت السيارة تحب في الطريق حتى وصلنا إلى مألقة بعد مسير ثلاث ساعات ونصف .. والمدينة بيوتها وقصورها وشوارعها وأشجار الليمون المنتشرة على حفا في ارضيتها تكاد تشبه مدينة طرابلس .

واتجهنا إلى فندق ميرامار .. وهو من الفنادق الفخمة التي يقصدها السواح ، ولا سيما في فصل الشتاء ، للفادة من جو مألقة الدافئ - المدينة الهادئة الودعة الواقعة بين الجبل والبحر .

والفندق : إلى أنه من الفنادق العصرية المتوفرة فيه كل وسائل الراحة والمتعة للزائرين - فهو عربي الطابع - أريد بطراز البناء والمقوش والاضواء والقناديل .. وحيثما سرت في أنبائه واجهتك كلمة « لا غالب إلا الله » الشعار العربي الذي اتخذته الاسبان في ترزين بيوتهم وقصورهم وفنادقهم ..

بعد أن تناولنا غذاءنا الشهي ونحن نستمتع بالجو الدافئ أخذنا قسطنا من الراحة .. وبعد مغيب الشمس بارحنا ملقة إلى الجزيرة الخضراء ..

١٩٥٤ / ٢ / ٦

والطريق من مالقة الى الجزيرة طريق جميل .. وهو على سيف البحر . ويكاد
يخاضى الجبال الخوضرة والاحراج الكثيفة .

وقد شعرنا اننا انتقلنا من فصل الى فصل - من الشتاء بشلوجه وعواصفه
وزمهريره الى الربيع الباسم الذي ازدانت ارضه واشجاره بخضرة سندسية ، الى
البحر بزرقته الجميلة وأنسامه العليقة ..

وقد بدت لنا قرى المزارعين المنتشرة هنا وهناك في وداعة وطمانينة :

وبعد مسير ساعة ونصف توقفت سيارتنا عند قرية «ماربيلا Marbella»

لتناول الشاي ، وهي قرية جميلة تتميز بالوداعة والجمال وغير بعيدة من « رندا »

ولم يكد الدليل يشير الى « رندا » حتي استيقظت في عواطف مثيرة ..

وأخذت احدى في هذه القرية النائمة على كتف الجبل .

وسألت الدليل عما اذا كانت في طريقنا ، واننا سنقضي فيها ليلتنا . قال : لا ..

انها تبعد أكثر من خمسين كيلو متر .. وهي ليست في طريقنا ..

قلت له كيف السبيل الي زيارتها ..

فضحك فرناندو وقال : لا سبيل الى ذلك . إنها بعيدة عن خط الرحلة ؟

وأخذت امطره بأسئلة مختلفة عن ماضيها وحاضرها..وعن صفات أهلها..
 وازداد إعجابه.. ولم يدر أسباب اهتمامي بهذه القرية بالذات حتى فاق
 اهتمامي بقصر الحمراء مثلاً .
 لم أعلم أن هذه القرية تضم رفات شاعر ملتاع ما بكى انسان الاندلس
 بقدر ما بكها شاعر رندا .

ووددت أن اتخلف عن الركب ، وأن اصعد في الجبال لأزور تلك
 القرية التي انبتت ابا البقاء صالح بن شريف الرندي الذي رثى الأندلس ابلغ رثاء
 وغمز من الملوك الذين تهاونوا عن انقاذها أقذع غمز ، نعم ، وددت أن أزور هذه
 القرية لأقف وقفه خشوع أمام قبر هذا الشاعر .
 وانتحيت ناحية ، وأخذت أنشد قصيدته التي يستذكرها الملايين ، والتي
 جرت على السنة الأدباء والشعراء والمثاقدين عبر السنين والتي مطلعها :

لكل شيء اذا ما تمَّ نقصان

فلا يفرَّ بطيب العيش انسان

لم اكذ انتهى من انشاد بعض أبيات هذه القصيدة ، بصوت حزين ملؤه
 الدمع والالين ، حتى أثرت انتباه رفاق السفر فأخذوا يتساءلون في صمت عما اذا
 كنت ابكي ابا أو اما أو فلذة من افلاذ اكبادي ..
 وسكنت ..

ثم أخذت أوجز لهم الموضوع
 وتنبيه الدليل الى كلامي واذا به يعلمني أن هذه القصيدة مترجمة الى الاسبانية،
 ترجمها شاعر اسباني مشهور اسمه « خوران فاليرا » .. وان طلاب كلية الآداب في
 جامعة مدريد يقرؤونها بدقة وفهم .
 وتابعت السير ...

... .

فحيثما سار الانسان في هذه البقاع تثيره الذكريات الحزينة المؤلمة ..
 ان الطبيعة الجميلة المزدهرة التي تواجهها في هذه البقاع الساحرة تجعلني
 أعيش هذه اللحظات في غفوة عنها ..

انني ارجع مئآت السنين الى الماضي ...
 هذا هو الدليل يشير الى صخرة عالية أخذنا نقرب منها ، ويشرح لرفاق
 السفر . وم خليط من مختلف الجنسيات ، أهمية هذه الصخرة ..
 انها صخرة طارق .. أي اننا نقرب من جبل طارق ..
 فأني ذكرى تثيره ..!
 لقد رجعت ألفا ومائتي سنة الى الوراء .. وتمثل طارق بن زياد ذلك البطل
 الذي قال كلمته الحاسمة حين خشي أن يدب الخور في قلب جيشه ..
 ان من يريد التراجع لا مناص له من الموت .. وما دام الموت هو الذي
 يرقبنا فما علينا إلا التضحية ..
 ايها الجنود : ان العدو أمامكم والبحر وراءكم .. وما عليكم إلا التضحية ..
 وتمت المغامرة التي كان زادهما الايمان ..
 فكم نحتاج اليوم الى قادة يؤمنون بما يقولون .. اذ لا ينقص المرب إلا
 الايمان .. اننا نقول كثيراً ولا نعمم .. نحن في حاجة الى أن نعمل وأن نحف
 لنفعلنا .. ولنا في الماضي اكبر الامثلة على التضحية والحرمان في سبيل المجد والخلود ..
 كلما اقتربت من هذا الجبل ازدادت في نفسي الاحاسيس
 اننا وجهنا لوجه أمام جبل طارق ..
 والفندق الذي نزلت فيه «رينا كريستينا Hotel Reina Cristina»
 يطل مباشرة على الجبل .. انني سأنام ليلتي مع طارق .. ويا لله واجس التي ستخالجني
 في هذه الليلة .

إلى قاصد

١٩٥٤ / ٢ / ٢٧

تركنا الجزيرة الخضراء صباح هذا اليوم الى قاصد
اجتازنا طريقاً ملتوية الى الجبال المنخفضة ذات التعاريض المليئة بالاحراج.
اننا نطل على البحر .. وقد بدا جبل طارق امامنا .. كما بدت الجبال المراكشية
أو مراکش الاسبانية كما يريد الدليل ان يسميها ..
الشمس مشرقة ، والجو صحو ، ورفاق السفر اصبحوا أكثر من أربعة
وجميعهم جاءوا يستمتعون بجبل هذه المناطق الساحرة ..
نحن على مقربة من مراکش ، ومن جبالها الشامخة التي حارب الامير
الخطابي من قممها وريفها قرابة عشرين عاماً يقارع الاستعمار في كل بقعة
من بقاعها ..

لقد كانت النصر قاب قوسين من هذا البطل الصندبد لولا انه كان وحيداً
في الساحة .. وكانت قوى ضخمة لدولتين استعماريتين كبيرتين تحالفنا للقضاء
عليه .. اريد على ثورته حيث استطاع البطل أن يفلت من الاسر ، وأن
يلجأ الى مصر ..

أي ذكريات مرت تثيرها هذه المواقع في نفسي وفي نفس كل عربي .

السيارة تسير سيرا وثيذا تارة ، وتخب مسرعة تارة أخرى ، وجميعنا مأخوذون بسحر هذه المناطق ولا سيما حين أخذنا نطل من فوق قمة الجبل على جانب البحر الاطلنطي ..
اننا نثرف على مناظر خلابة تهنر المشاعر .

بعد مسير غير طويل اقتربنا من مدينة طريفة « Tarifa » التي تحمل اسم طريف بن مالك أحد القادة الذين أبلوا بلاء حسنا في فتح الأندلس ، وما زالت المدينة ، والاصح أن تسمى قرية ، ما زالت تحتفظ أسوارها وبيوتها وقناطر سدودها ومأذنتها التي استحالت الي برج - ما زالت تحتفظ بالطابع العربي .

ما كدنا نبتعد عن «طريفه» حتى أخذنا نمحدر الى الشاطيء ونستمتع بمجال الاطلنطي - بزقة مائه وزرقة افقه .

حين يمر العربي بهذه المساطق يصبح شبه نشوان .. ولكن سرعان ما تنلفى جذوة هذه النشوة التي تنقلب الى ذكريات مثيرة لا يكاد يردد اصداها ويستعرض لمهاية تلك الفصول الحزنة حتى تذرف الدموع
اننا نسير في جنات الأندلس .

ولكن ما هي الخطيئة التي ارتكبتها العرب حتى أخرجهم الله من هذه الجنات الوارفة كما أخرج آدم من جنته . خطيئتهم واضحة للعالم ..
فحين خلدوا الى نعيم الشهوات دبَّت الاحقاد في نفوسهم وأخذوا يقتتلون في سبيل المجد الكاذب وفي سبيل الامارات الخاوية .
تفرقت كلمتهم بعد أن كانت مجتمعة ..

انصرفوا وراء المفريات والشهوات وبريق الرئاسات ..
ولولا هذه الخطايا المنكرة التي اقترقتها نفوسهم الصغيرة لما خرجت الاندلس من أيدي العرب .. ولكن شأنهم اليوم غير شأنهم بالأمس
ما مرت ، علم الله ، بقعة فيها أثر عربي إلا زحمتي هذه الهواجس الحزينة .
...

ان السيارة في طريقها الى قانس ..
 يوجه الدليل انظارنا الى مزرعة واسعة يدرّب الثيران في حقولها
 للمصارعة ، وهي اللعبة التي اختص بها الاسبانيون والتي اصبحت من تقاليدهم
 القومية حيث تقام لها حفلات يقصدها الناس ، كل ربيع ، من أطراف
 الدنيا .

من هذه المزارع الواسعة الى بعض القرى النموذجية التي بنتها الحكومة ،
 وهي بيضاء اللون ذات طراز غاية في البساطة .
 ونترك البحر لنصعد في الجبال من جديد .
 انسا في ظلال قرية عربية الطابع تسمى Gerez de la frontera ،
 ان اكثر القرى العربية شيدت في المرتفعات وهي اشبه بالحصون ..
 كان الاجداد شدة حذرين من المفاجآت ..
 ولكن الاحفاد ، وقد انغمسوا في نعيم الشهوات ، اهملوا حذر الاحداد ،
 فتنافسوا على الحكم وكانوا صرعى المفاجآت .

...

دخلنا قانس ظهر يوم الاحد ...
 أي بهجة تغمر المدينة هذا اليوم ..
 كانت تفص بالقادسيات الخارجات من حرم الكنيسة وعلى رؤوسهن
 طراح سوداء . فتيات كرونق الضحى .. اخذن يخطرن كالمظليات في طريقهن
 الى شاطئ البحر ..
 وكان الشباب الطري العود يلاحقهن بنفوس ثائرة وافئدة مشوبة فيتبسمن
 ويشصاحكن ويبذلن الوعود الصحيحة أو الكاذبة لا ادري .
 أكثر ما لفت نظري خطواتهن الرشيقة ، وضحكاتهن المسكرة ، وغنجهن
 المثير المرقص .

...

ان قادس مدينة جميلة ذات ابنية حديثة ، يقدر عدد نفوسها بمائة الف نسمة ،
وبالرغم من ابنتها الحديثة ، ما تزال تحتفظ بالطابع العربي .
وهي مدينة مبتسمة ، مشرقة ، كبيرة ، كثيرة النظرة والاختصار
حتى لتعتبر من اعظم شواطئ الجنوب في اسبانيا ، يقصدها السواح في الشتاء
فيقضون اياما واسابيع في جوتها السحري الدافئ .

بعد ان تناولنا غذاءنا في فندقها الكبير المطل على الشاطئ الاطلنطي
زرنا كاتدرائيتها الكبرى ، وهي فضمة ذات تزاويق جميلة ، تضم مجموعة نادرة من
اللائي والاحجار الكريمة عدا الكنوز الذهبية .
وحسب القاري ان يعلم ان الكاتدرائية تصميماً من الذهب الخالص
زنته ٢٢ / كيلو غراماً ، وقد ازدان هذا التصميم الفريد بالعقود الثمينة والاحجار
الكريمة - من زمرد ولآلي .

وقد تسأل من أين هؤلاء الكهنة الاجلاء ، وحياتهم تقوم على الزهد والتقشف
هذه الكنوز التي لا تقدر بثمن .
وسألت نفسي هذا السؤال ورأيتني اتقدم من الأب المحترم اسأله لأبدد
حيرتي ، ولم يخل بالجواب ..

قال :- انها هدية مراب كبير مرض في اخريات ايامه وكان قد جمع
ثروة من جيوب الفقراء والارامل فتقدم الى الهيكل بكل ما يملك من ذهب
وفضة ولآلي وعقود ليكفر عن ذنوبه وخطايا .. اهل الله يغفر له ويمن
عليه بالشفاء .

انها عظة وأي عظة ..

وفي خزائن هذه الكاتدرائية عشرات الكنوز النادرة - صلبان وأيقونات
وشمعدانات ، وزخارف وصحون ذهبية مطعمة بالبلاتين والكثير مما يقف الزائر
ازاءه مذهوشاً .

وقبل ان تنتهي زيارتنا لفت الأب المحترم نظرنا الى صحن وضع فيه مفتاح المدينة الذي سلمه العرب الى القشتاليين .
لقد اصبحت هذا المفتاح من ذكرياتهم المقدسة التي تحتفظ به الكاتدرائية كثر من أعظم الآثار - تفوق قيمته قيمة جميع ما في الكاتدرائية من ذهب ولآلي وزمرد واحجار كريمة .

تركت الأب يشرح للزائرين قصة هذا المفتاح الذي استحال في نظري نصلاً دائماً يقطع نياط قلبي .. وخرجت مسرعا الى باحة الكاتدرائية انفس الصمداء وعيناي تطفران بالدموع

عدت الى الفندق اخلو الى نفسي وأعيش في خضم الذكريات المحمومة التي كانت تتقاذفي كما تتقاذف موجات البحر كرة تطفو على مياهها، مرة كنت غوص الى الاعماق أعيش في دياميس عفنة مظلمة من اوزار المتكالبين على الرئاسات، وتارة يرتفع بي الموج على اباج من الابعاد فأنتهي واعتز .

لقد وددت لو متاح لي أن اقضي اسبوعا في هذه المدينة الوداعة ، وفي فندقها الكبير استمتع بالدفء واتخلص من مواضع الحياة واعبائها ، اقرأ وأأمل واكتب ولا شيء الا الدعة والاطمئنان .. ولكن اني في ذلك، والرحلة موقوته ، وقد حددت ساعاتها وابامها بميعاد .

وحين جلست أتأمل البحر بعد غداء شهبي رأيتي اغفو ... ولكن ما هي غير لحظات قصار حتى رأيت الدليل ينادي الركب .

كنت في غفوة حاملة مع اسطورة قديمة من اساطير هذه المدينة - قصة الرجى والطمس ..

وهي قصة تنبثق من بين سطورها الكثير من المقارقات المجدبة التي تصور بطولة الفداء والمغامرة في سبيل الحب والدفاع عن الوطن .

تقول الاسطورة - كانت يحكم جزيرة قانس ملك له ابنة في غاية الجمال ، وقد خطبها كثيرون من ملوك الاندلس فلم تلب طلب احد ، ولما كثرت الحاحهم اشترطت ان يكون زوجها ملكاً حكيماً ، وإذ لم يكن بينهم غير

اثنين تجمعت فيها صفة الملك الحكيم فقد تقدما بطلب يدها . ولم تحمل المشكلة
فأيهما تختار ؟

كانت الفتاة على جانب عظيم من الذكاء فرأت ان تجعل التنافس بينها على
أمر يخدم وطنها ، وبعد تفكير عميق قالت : - انها لا تتزوج الا " برجل يصنع
لجزيرتها طلسماً يمنع البربر من غزوها ، أو من يجرى اليها الماء العذب يروى
ظماً مواطنيها .

وكان الطالبان من المطالب المسيرة
وبالرغم من صعوبة تحقيق هذين الطالبين فقد قبلا شرطها .
اختار احدهما ان يغمر الجزيرة بالماء العذب ، واختار الثاني صنع الطلسم
لمنع دخول البربر .

واخذوا يبدان العدة ويجترئان على المعجزات ليل نهار لتحقيق رغبة
الحسناء على ان يكون كل واحد اسبق من صاحبه .

واقتما المشروع في فترة جد قصيرة ، اما صاحب المشروع الاول ومشروع
المياه ، لما كاد ينتهي من عمله حتى كتم الامر لكيدة في نفسه ، وأما صاحب الطلسم،
وهو فنان ، كان يعمل بتؤدة مراعي ادق موحيات الفن ، وقد اتم عمل التمثال
ولم يبق غير صقل الوجه بريق الذهب .

في هذه الفترة بالذات اعلن منافسه الانتهاء من مشروعه واجرى الماء
رقيقا في ارض الجزيرة ، واذ سمع صاحب الطلسم بخبر المياه يقرع اذنه وهو
في اعلى قمة التمثال الذي بلغ علوه ستين ذراعا انهارت قواه وسقط من اعلى
البناء ميتاً .

وهنا كانت فرحة منافسه جد عظيمة ، فتحققت امنيته الغالية بكده
ومكيدته، وفاز بقلب الاميرة ، وليس هذا فقط بل أصبحت الاميرة والطلسم
من حقه ..

...

ما كدت افيق من غفوتي على اسطورة هذا الطلسم^(١) الذي ارادت اميرة
 قادس ان تقيمه لتدفع عن وطنها غزو الفتوحات حتى رأيت الدليل يحث
 الركب لمتابعة السير ففاجأته بسؤاله عن مكان الطلسم ، فلم ينتبه ، وكررت
 السؤال مرة ثانية دون أن احظي منه بجواب ، وشمرت انه لم يفهم ما افضيت
 اليه ، وحين رجعت ، بعد عودتي الى المصادر العربية رأيت صاحب معجم
 البلدان يقول : انه قرأ في كتبهم ان الطلسم هدم سنة ٤٠٠ هـ / رجاء ان يوجد
 فيه مال فلم يوجد شي .

واستأنفنا السير الى اشبيلية .

...

(١) جاء في نفع الطيب ما يلي :

كلن بنواحي غرب الاندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس ، وكانت له ابنة في
 غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الاندلس ، وكانت الاندلس كثيرة الملوك ، لكل
 بلدة او بلدين ملك ، فخطبوها وغشي ابوها ان زوجها من واحد اسخط الباقيين ،
 فتعجبوا وحضر ابنته ، وكانت الحكمة سركية في طباع القوم ذكورهم واناثهم ، ولذا قيل ان
 الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة اعضاء من اهل الارض - ادمغه اليونان ، وايدي
 اهل الصين ، والسنة العرب ، فقال لها : يا بدي ابي اصبحت على حيرة في امرك من
 يخطبك من الملوك ، وما ارضيت واحدا الا اسخطت الباقيين فقالت له : اجعل الامر
 الي تخلص ، فقال وما تقترحين ؟ فقالت : ان يكون ملكا حكيما ، فقال : نعم اخترته
 لنفسك ، فكتب في اجوبة الملوك الخطاب - انها اختارت من الازواج الملك الحكيم ،
 فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما موكان في الملوك الخاطئين حكيسات ،
 فكتب كل واحد منها انا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيها قال لها : يا بنية بقي
 الامر على اشكال ، وهذان ملكان حكيما ايها ارضيت اسخطت الآخر ، فقالت :
 سأقترح على كل واحد منها امرا قالت ايها اسبق الى الفراغ مما التمت كنت
 زوجته - قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : انا ساكون بهذه الجزيرة ومحتاجون
 الى ارحي تدور بها ، واني مقترحة على احدهما ادارتها بالمال العذب الجاري اليها من
 ذك البر ، ومقترحة على الآخر ان يتخذ لي طلبا محصن به جزيرة الاندلس من البربر ،
 فاستطرف ابوها ذلك ، وكتب الى الملكين بما قالته ابنته فاجاباه الى ذلك : وتسامه
 علي ما اختارا ، وشرع كل واحد منها في عمل ما اسند اليه من ذلك .

تتمة الحاشية (من ٦٩)

فاما صاحب الرحي فانه صمد الى اشكال اتخذهما من الحجارة ، نضد بعضها الى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الاندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبته وسدد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، واوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة - وآثاره باقية الى اليوم في الزقاق الذي بين سبته والجزيرة الخضراء ، واكثر اهل الاندلس يزعمون ان هذا اثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبته الى الجزيرة ، والله اعلم أي القوانين اصح ؟ غير ان الشائع الى الان عند الناس هو الثاني ، فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جاب الماء المذهب من جبل عال في البر الكبير ، سلطه من ساقية محكمة وبني بجزيرة الاندلس رحي على هذه الساقية .

• • •

واما صاحب الطلسم فانه ابطأ عمله بسبب انتظار الرصد المواقف لعمله ، غير انه عمل امره واحكمه ، وابتني بنيانا مربعا من حجر ابيض على ساحل البحر ، في رمل عالج حفر اساسه الى ان جعله تحت الارض بمقدار ارتفاعه فوق الارض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور النحاس الاحمر والحديد المصني المخلوطين بأحكم الخياط صورة رجل بربري وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة في رأسه لبعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء ، قد جمع طرفه على يده اليسرى بالطف تصوير واحكمه ، في رجله ثقل وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجله فقط ، وهو شاهق في الهواء طوله ينف عن ستين او سبعين ذراعا ، وهو محدودب الاعلى الى ان ينتهي ما سمته قدر ذراع ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه ، مشيراً الى البحر كأنه يقول - لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهاه انه لم يرق قط ساكنا ، ولا كانت تبحر فيه قط سفينة بربر الا سقط المفتاح من يده ، وكان الملكان الاذان عملا الرحي والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل - اذ بالسبق يستحق زواج المرأة . وكان صاحب الرحي فرغ اولاً - لكنه اخفى امره على صاحبه لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، ليحظى المرأة بالرحى والطلسم ، فلما علم باليوم الذي فرغ صاحب الطلسم في آخره ، اجبري الماء في الجزيرة من اوله وادار الرحي ، واشتهر ذلك فاتصل ، الحبر بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهبا ، فلما تحقق انه مسيقضهفت نفسه ، فسقط من اعلي البناء ميتا ، وحمل صاحب الرحي على المرأة والرحى والطلسم .

الخطاب الذي غيّر وجه التاريخ

أريد خطاب طارق بن زياد
الخطاب الذي أثار حماسة الجنود فأصبحوا كالردة لا يهابون الموت بل
يستعذبون شرب كأسه المرّ حتى الثمالة وهم في نشوة مرقصة - النشوة التي ارتفعت
بهم الى مرتبة الشهداء الأبرار ..
فتية سمر الوجوه ، يمثلون الحمية والايمن ، جاءوا من قلب الصحراء لنشر
رسالة الحق فما كادوا يقطعون آلاف الاميال وتحاذي أرجلهم مضيق الجبل يحدقون
بمياهه الزرقاء حتى وقفوا مذهولين يداعب اليأس افئدة بعضهم .
ويشمر القائد الأعلى بما خامر نفوس بعضهم فيصرخ صرخته المدوية فاذا
بهم ينقلبون خير منقلب : من يأس مرير الى أمل باسم عريض ، من خوف
تهلح به النفوس ، الى شجاعة الأبطال الصناديد ، من اضطراب وخور وضعف ،
الى عزيمية وقوة واندفاع .
نعم ، ما كادت خطبة طارق تلامس شغاف قلوبهم حتى هزتهم هزاً ،
والكلمة قدسيته وأثرها في النفس .
والانسان ، في الفترات العصيبة الحاسمة ، ينقاد لثورة العاطفة الهائجة أكثر
من انقياده لخطط التي يرسمها الفكر المتزن .

وتاريخ الثورات والفتوحات مليء بالشواهد على ان الكلمة لعبت دورها الخطير في الكثير من الاحداث ..
وكثيراً ما دهورت تيجانا ، واطاحت برؤوس ، وأحدثت ثورات وانقلابات ..

نعم ، ان خطب القادة ، في مختلف عصور التاريخ ، لعبت دورها الخطير في تغيير اتجاه سياسات ، ومصير حروب وفتوحات ، وربما كان أثرها في النفوس أبلغ من الحديد والنار ..
مررت بي هذه الخواطر وأنا في الجزيرة الخضراء ، في فندق الملكة كريستينا .

وأي عربي يقترب من جبل طارق ولا يذكر هذه الحقبة من تاريخنا الوضيء ويذكر معها بطولة طارق بن زياد وخطبته الشهيرة .
في الفندق تعرفت بمض رفاق الرحلة الى القنصل البريطاني فما كادوا بفتحونه بزيارة جبل طارق حتى اذن لهم بالزيارة .

كننا اربعة على مائدة العشاء ، مدير محطة التلفزيون في كندا وزوجته ، وسيدة أميركية وأنا .. وسرعان ما تركنا المائدة قبل ان ننهي من وجبة العشاء وقضينا نغتنم هذه الفرصة الثمينة .. وكنت أسرعهم في تحقيق هذه الرغبة ، ولا سيما ، وبرنامج الرحلة يقتضي الا يطول مقامي في الجزيرة الخضراء اكثر من سواد هذه الليلة فقط !

واخذنا طريقنا الى جبل طارق ، فما كدنا نمبر الحدود الاسبانية حتى قيل لنا هنا تبدأ الحدود الانكليزية .. واذا نحن في منطقة محصنة الابواب الحديدية ، واذا الجنود الانكليز يواجهوننا بسماتهم التي تخفي وراء انفراج الاسارير قسوة صارخة !

وبدأت الاسئلة والاجوبة وفحص الجوازات والتحديث بالوجوه والمسحنتات .. ثم بدأت الاتصالات الهاتفية .. وبعد برهة طويلة سمح للكندي وزوجته والسيدة الاميركية ، ومنعت أنا العربي السوري من دخول هذه البقعة العربية !

ولماذا ؟

- وتأشيرة القنصل التي وشع بها جوازي با حضرة الضابط !

- سكت بدون جواب

وكثر الأخذ والرد ، وتدخل الرفاق .. ولكن بدون جدوى ..

والانكليزي عنيد صلب المراس من الصعب اذا قال : لا .. ان ترحله عن رأيه ، ولا سيما اذا كان ذا بزة عسكرية وضابط حدود ، وفي منطقة حساسة ، ومع عربي يريد ان يمر في الليل من ارض اسبانية الى ارض عربية اصبحت في منطق شريعة الغاب منطقة انكليزية !

وهكذا ، فقد حرمت من ان تطلأ قدامي الارض التي وطئها اقدام طارق بن زياد وجنوده البواسل ..

نعم ، لم يتح لي أن أقف وجها لوجه امام الصخرة التي وقف عليها طارق والقي خطبته الشهيرة التي غيـرت وجه التاريخ . فقد اصبـح العربي يحرم ، وبالرغم من صحة الاجراءات القنصلية من التجوال في الارض المحبولة بدم اجداده الميامين !

وعدت اهـجس هواجس غربية ، وقد بت ليأتي ، علم الله ، مقترح

الاجفان !

واخذت استعرض قصة هذه الصخرة الحصينة التي تحمل اسم البطل العربي

قصتها اليوم وقصتها في الماضي ..

اما اليوم فهي تشكل مشكلة خطيره بين انكلترا واسبانيا التي تعتقد أن الجبل قطعة من اراضيها وان احتلال انكلترا لها غير شرعي . فلا تكاد تتور ثائرة الاسبان حتى تخمد .. أما الانكليز فلا يحركون ساكننا وتظل آذانهم صماء عن سماع كل ضجيج ولغط ما داموا مسيطرين سيطرة محكمة ..

فحين قامت ملكة انكلترا بزيارة جبل طارق والقت السفينة مرساها عند الصخرة الحصينة احتج الاسبانيون وأبدوا استياءهم المرير واحتجاجهم القنيف

بمختلف الطرق الرسمية والشعبية .. ولكن هل أفاد ذلك شيئاً ؟ لقد ذهبت صرخات
الاستياء وصيحات الاحتجاج ادراج الرياح !
ونمود الى الماضي البعيد نستقرئ تاريخ هذه الصخرة الصغيرة الحجم
الكبيرة الأثر في السياسة الدولية

كان الاغريق والرومان يدعون هذه الصخرة « اليبي » وينتمونها
بـ (أعمدة هرقل) المشهورة التي كانت النهاية الغربية لنشاط دول البحر الابيض
البحرية ..

ولما تغلب العرب على قوات الفوط سنة ٧١١ م ، بعد قتال مرير استمر
ثلاثة أيام ، اتخذت الصخرة اسمها الحديث من القائد العربي طارق بن زياد الذي
أمر على الفور بتحصين هذا الموقع الذي ظل بيد العرب ثمانية قرون ..

وفي سنة ١٣٠٩ م استرد الاسبان جبل طارق .. ثم انتزعا العرب منهم
بعد ثلاثين سنة .. وعاد الاسبانيون ، بعد هذه الفترة فاستردوها سنة ١٤٦٢ م .
وفي سنة ١٧٠٤ انتهزت انكلترا فرصة اشتباك اسبانيا في نزاع لها مع النمسا فاستولت
على جبل طارق بالاشتراك مع هولندا ، ولحساب النمسا وباسمها ..

ولكن ما لبثت ان نقضت عهودها ونسيت وعودها .. شأنها في جميع العهود
والعوود التي تقطعها بعد ان تقسم بشرقها !

وهكذا ، انفردت بالقلمة واعلنت ضمها الى املاك التاج البريطاني -
تاج الملكة آن الانكليزية ورفعت عليها العلم البريطاني الذي لا يزال يخفق عليها
حتى الان .

وقد بذلت اسبانيا محاولات عديدة لاستردادها فذهبت محاولاتها
بدداً ..

ولما كانت اولى تلك المحاولات بدمية اشهر من احتلال الانكليز للصخرة ،
ولما فشلت المحاولة الاولى لجسأ الاسبان الى المفاوضات السلمية فماطلت انكلترا
وراوغت وكسبت الوقت حتى عيل صبر اسبانيا بعد ست عشر سنة من

مفاوضات سلمية ، فأعادت أسبانيا المهجوم عليها سنة ١٧٢٠ م ثم سنة ١٧٢٦ م ولكن دون جدوى ..

وفي سنة ١٧٧٩ م انتهز الاسبان فرصة اشتباك الانكليز مع الاميركان في حرب الاستقلال الاميركي وقاموا بأكبر محاولة حرية لاسترداد جبل طارق ، فحاصروها الحصار العظيم وهاجموها برأ وبحراً مدة اربع سنوات ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، واضطروا الى رفع الحصار في شباط سنة ١٧٨٣ . . .
واعاد الاسبان الكرة سنة ١٨٠١ بمعاونة الافرنسيين دون ان يظفروا بنتيجة ..

وبما تزال هذه الصخرة النيمة منذ تلك الفترة الطويلة والى يومنا هذا ، تحت السيطرة البريطانية ولا يعلم الا الله متى تزول هذه السيطرة وتمتشي ينكس العلم البريطاني الذي أخذ يلهم اطرافه من الكثير من الاقطار التي كانت تلمس بريطانيا لا تنرب عنها . . .

والصخرة ، تزداد قوة وتمكيناً بما بذروا في الجبل من الحصون ، وبما حفروا من الانفاق ، وبما اسسوا من المرافق ودموا من البحر ، وبما حسنوا اجمالاً في اسباب الحياة المدنية والعسكرية ، وفي اسباب المناعة البحرية ، ففدت اخصن الحصون واعزها في العالم ، وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوي الذي نحن فيه ..

.....

ولنترك ، بعد هذه الالامه ، قصة النزاع على ملكية جبل طارق بين الاسبان والانكليز ، ولنعمد الى تاريخ العرب في تلك المنطقة ..
كيف عبروا الى اسبانيا ؟
كيف افتتحوا تلك المناطق الحصينة الوعرة ؟
بأي سلاح اندفعوا
وبأي عتاد زجوا أنفسهم في هذا المعترك الشائك ؟

اريد ان اعتقد قبل ان نوجز مراحل هذه القصة ، ان سلاحهم الأوحـد
كان الايمان .. ولا شيء غير الايمان .

...

فبعد ان بسط العرب سلطانهم على شمال افريقية بقيادة موسى بن نصير تطلعوا
الى البلاد الواقعة على الضفة الاخرى من مضيق جبل طارق .

وقد خشي موسى بن نصير من مغامرة قد تضيع عليه ما كسب من نصر ،
ورجـا تقذف بمجيش المسلمين في مصير مظلم قد تكون نهايته ضياع الثمرات الحلوة
التي جناها المسلمون بقوة ايمانهم .

وبيناهو في هذا الموقف يبحث الموضوع من شتى نواحيه تقدم اليه يوليـان
حاكم سبتة وعرض عليه تسليم سبتة ، ثم المساعدة في فتح اسبانيا ثانياً .

وكانت سبتة ولاية افريقية تابعة لاقوط ، يحكمها من قبلهم حاكم ..

وكانت الى ذلك حصناً حصيناً من الحصون الافريقية التي لم يخضعها
المسلمون بعد ، كما كانت ثمراله قيمته على مضيق جبل طارق يمكن ان يستخدم في
العبور الى جنوب اسبانيا ..

اما لماذا عرض يوليـان هذا العرض السخي على موسى فلمؤرخين في
الاجابة عليه اقوال عديدة ترجع في جملتها الى ضغائن بين يوليـان هذا ، وبين ملك
القوط حينئذ المسمى رذريق .

وهي ضغائن تمس المروءة والعرض والشرف ، الى نزعة الملك والسلطان
ومؤدى هذه القصة انه كان من عادة امراء الفرنجة في العصور الوسطى
ان يرسلوا ابنائهم وبناتهم الى قصور الملوك لكي ينشأوا فيها نشأة ممتازة ،
ويتشبعوا بتقاليد وثقافة هذا الجو المترف الذي نشرته الاسر الحاكمة من حولها
حتي اذا مضى الفتى والفتاة بضعة اعوام عاد الى مقر ابيه مطبوعا بطابع الحياة التي
خلقها في مقر المليك .

وكان الكونت يليان تابعا لملك اسبانيا رذريق الذي اختار حماية امبراطور
بزنطة لبعـد هذا وقرب ذاك من بلاد سبتة .

ولما كانت لهذا الكونت فتاة صغيرة اسمها فلورندا رأى ان يسير بها سيرة
الامراء فأوفدها الى قصر رذريق في طليغلة لتنشأ هناك .
وكانت الفتاة على حظ كبير من الجمال ، فمال اليها رذريق واحتال عليها
حتى اغتصبها ،

ولم يكن هذا الحادث الفاضح مألوفا في تقاليد القصور ، اذ كان على الملك
ان يصون فتيات الامراء في قصره كما يصون بناته هو ..
وقد احتالت فلورندا حتى أبلغت اباهما النبأ المشين .

وهنا ثارت ثائرة يليان ، ولم يجد سبيلا للانتقام الا ان يتحالف مع العرب
سراً لكي يفتزوا اسبانيا ويزيلا روذريق الملك الفذل عن عرشه .
هذا هو مؤدى القصة كما جاءت في رواية الكثير من المؤرخين الذين عرضوا
لتاريخ الاندلس . بعضهم يرويها بتحفظ وبعضهم يثبتها على علاقتها ، وبعضهم يثبتها
دون الاطمئنان الى صحتها كما اوردها لين يول في تاريخه .

ومها يكن من أمر فقد وحب موسى بهذا العرض ، وارسل طريف بن
مالك أحد محاربيه الشجعان على رأس قوة صغيرة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠
فارس عبرت المضيق على اربع سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت في جنوب شبه
الجزيرة بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم الى اليوم حيث يسمى جزيرة طريف
ثم عادت تلك السرية الى شمال افريقيا طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد .
وكان عبور هذه السرية الى جنوب اسبانيا سنة ٥٩١ هـ ٧١٠ م .

هذا ، ونعتمد على صاحب نفع الطيب في رواية طرف من هذه الاحداث ، فقد
يكون اصدق من يرجع اليه في بسط حوادثها :
يقول المقرئ :

عقد موسى اطارق ، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالي
وليس فيها عرب الا القليل ووجه معه يليان فبأ له يليان المراكب . فركب في
اربعة سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم السبت في شعبان سنة اثنين
وتسعين ، ثم صرف المراكب الى من خلفه من اصحابه فركب من بقي من الناس ولم

تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافي جميعهم عنده بالجبل.
ولما تكامل هذا الجيش الصغير تحت امره طارق وقف في سفح الجبل ،
وخطب جنده قائلاً :
أيها الناس

أيها المفر؟.. البحر من ورائكم ، والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر
واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللثام ، وقيد
استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ،
ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على
افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم امراً ذهب ربحكم ، وتموضت القلوب من رعبها منكم الجراءة
عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذه الطاغية ..
فقد اقت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم
لانفسكم بالموت . واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارحص
متاع فيها النفوس ابداً بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلاً
استمتعتم بالألفة الا لث طويلاً - فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفر من
حظي وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسن من بنات اليونان الرافلات
في الدر والرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي
التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً ، لملوك هذه
الجزيرة اسهارا واختاناً منه بارتياحكم للطمان ، واستباحكم لجلالة الابطال والفرسان ،
ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون
مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على
ما يكون لكم ذكر آفي الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . واني
عند ملتقى الجبين حامل بنفسي على طاغية القوم لتريق فقاتله ان شاء الله تعالى ..
فاحملوا معي ، فان هلك بعمه فقد كفيتكم امره ، ولم يموزكم بطل عاقل
تسندون اموركم اليه . وان هلك قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزمي هذه .
واحملوا بانفسكم عليه ، واكتفوا المهمة من فتوح هذه الجزيرة بقتله فانهم

بعده يخذلون..»

• • •

أي سحر تركته كلمات طارق في نفوس جنوده ؟
 لقد اثارتهم وكهرتهم وأشعلت جذوة الحماسة في نفوسهم .
 وضع جنده بين امرين لا ثالث لهما : الحياة أو الموت ، ولم يضع طارق نفسه
 في مؤخرة الصفوف بل كان في المقدمة ..
 انه لم يحذرهم امراً هو بنجوة عنه ..
 ولا حملهم على خطة لم يباشرها بنفسه ..
 بل كان في طليعة من استجاب الى ما دعا اليه ..
 فما كادت تدور رحى المعركة حتى كتب فيها النصر . . وكانت اولى
 الخطوات التي مكنت للعرب والقيادة من بعده ، ان يتابعوا نفس الخطة في فتح
 تلك الاصقاع .

وهكذا ، فقد كان لهذه الخطبة التي ألهمت ضمير الجنود وأثارت في نفوسهم
 الحماسة التي جعلتهم يستمذبون الموت في سبيل حياة خالدة - كان لهذه الخطبة
 التاريخيه اثرها البالغ في تاريخ الفتوحات : واستطاعت بما ابداه قائدها من شجاعة
 وبطولة - ان تغير لفترة طويلة من الزمن - وجه التاريخ .

من قادم الى اشبيلية

عمر حسن المدرس للدراسات

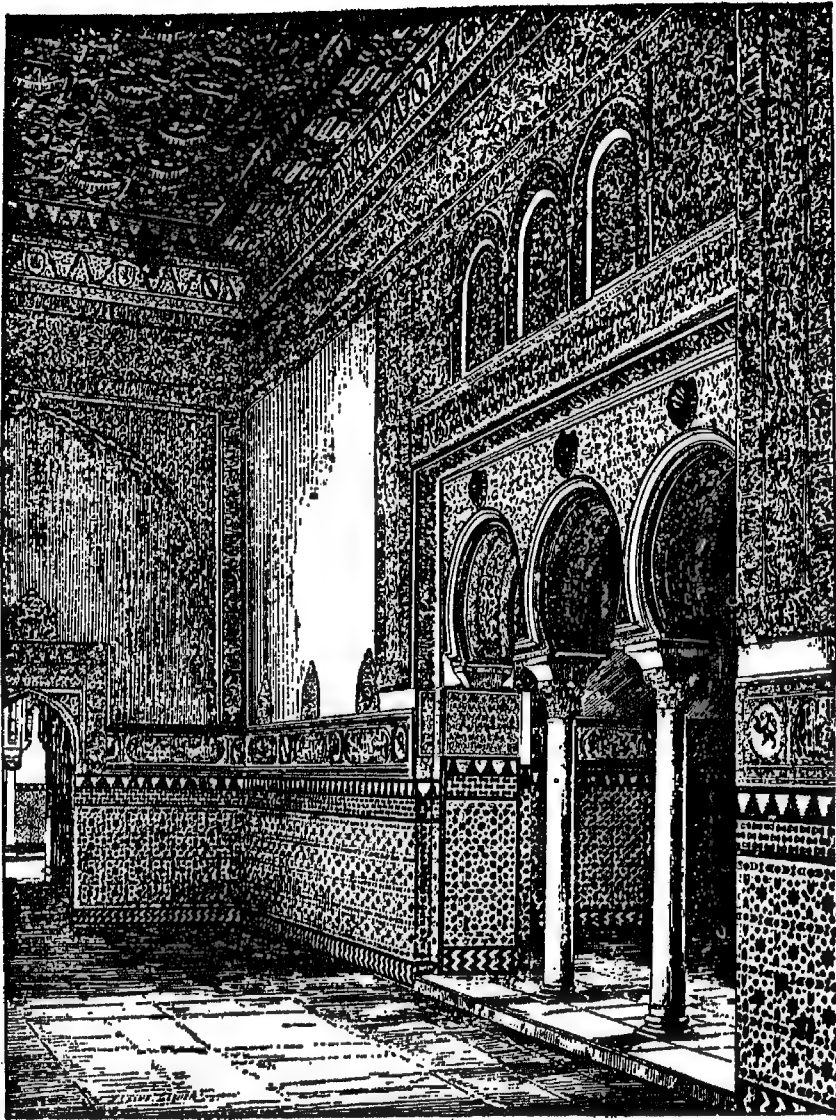
١٩٥٤ / ٢ / ٢٨

كان الشوق يجتذبي اليها كما اجتذبتني غرناطة ، ولا غرو في ذلك فلاشبيلية
ذكر طويل في تاريخنا الادبي .

دخلناها قبيل مغرب الشمس فررنا بحديقةها الكبرى ، وبالشارع الرئيسي
الذي تزدان جوانبه بالاشجار الباسقة .. ثم اتجهنا الى فندقها الكبير - فندق
الفونس الثالث عشر - وهو من أعظم فنادق اسبانيا ، يدهشك بطرازه الكلاسيكي
وجوه الاوروبي والطابع العربي الذي يمد ظلاله على الكثير من غرفه وقاعاته ..
بعد أن أخذنا قسطنا من الراحة ، وبعد ان تناولنا عشاءنا قضينا السهرة في مرقص
يمرض الرقص الاسباني بشقى لوانه .

وكننا في شوق ملتح لأن نرى الوان هذا الرقص في الارض الاسبانية وفي
اشبيلية ، بصورة خاصة ، منبع هذا الفن المثير .

وكانت ليلة نعمنا خلالها بمشاهدة أجمل الرقصات الاسبانية - الرقص
الذي يدور على نغمات القيثارة وعلى طقطقة الكستاليا والذي يمثل أعنف مطارحات
الحب في خفة وغنج ورشاقة ..



هو ملوك المغاربة في قصر اشيلة

لقد نمت نوماً هادئاً بعد سهرة طالت حتى الثالثة صباحاً ! اكتحلت عيناى
فيها بأروع ما قدمته فرقة اسبانية شهيرة من رقص اندلسي عريق .

• • •

وفي اليوم الثاني قمتانجول في هذه المدينة الكبيرة التي تقع في واد متسع على
الضفة الكبرى من النهر - نهر الوادي الكبير .
واشبيلية أو سفيلا Sevilla كما هي عند الاسبانيين . يشتق اسمها كما يقول
المؤرخون ، من الاسم القديم اسبالس Hispals وقد اطلق عليها في العهد العربي
اسم « حمص » لأنها كانت ، عند تقسيم الاندلس ، من نصيب جنـد حمص ائـلهم
فيها عام ١٢٥ هـ . العامل ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي .
ولا أريد ان اعرض الى تاريخها فحسبي ان اسجل بعض الانطباعات التي
تركتها هذه الزيارة الخاطفة ، ثم اعود الى تدوين بعض ما تميزت به من ظواهر في
العهد العربي المشرق ..

• • •

جاءنا الدليل صباحاً يرسم منهاج الرحلة ..
قال سنبداً بزيارة « الكازار » يريد القصر - القصر الملكي القديم الذي
لا يزال يحتفظ باسمه العربي Al - Cazar
وقد أخذنا طريقنا اليه ، فما كدنا ندخل ساحته وباحاته ونسـدـخل غرفه
وابهائه حتى شعرت بالاعتزاز المشوب بالألم ..
ويتألف القصر من طابقين : أما الطابق السفلي فهو القصر القديم ..
وأما العلوي فقد امر ببنائه الملك فيليب الثاني الذي حرص ان يكون على
غط الطابق السفلي .. ولكي يتم التناسق استدعى مهرة الممارين وطلب اليهم أن
يبدلوا قصارى جهدهم ليكون الفرع كالاصل ، وحرص ان تزدان جدرانـه
بالنقوش العربية والآيات القرآنية .. وبالرغم من الجهد الذي بذلوه ظلت نقوش
الطابق السفلي وزخارفه وكتاباتـه القرآنية واشعاره ذات اصالة عربية تمثل عبقرية

المرب القدامى رغم تقادم العصور ..

أكان هذا القصر قصر ملوك بني عباد ؟

وأن قصائد ابن حمديس وابن زيدون وابن عمار وغيرهم وغيرهم كانت تتردد على مسمع المتمد الذي جعل من قصره بيئة تزدهر بفنون الادب والشعر تماماً ، كما كان بلاط سيف الدولة يعج بأكابر الشعراء والادباء والفنانين والفلاسفة ..

أكاد اوقن ذلك .. لولا أن الرواية التاريخية تقول ان هذا القصر بني في عهد يوسف الثاني المستنصري الموحيدي ، وقد شيده عامله ابو الملاءم عام ٦٤٧ هـ كما شيد الى جانبه برجا على ضفة الوادي الكبير لحماية النهر .. ولا اتوسع هنا في ملوك بني عباد الذين لعبوا دوراً في تاريخ هذه المنطقة فحسبي الامناع .

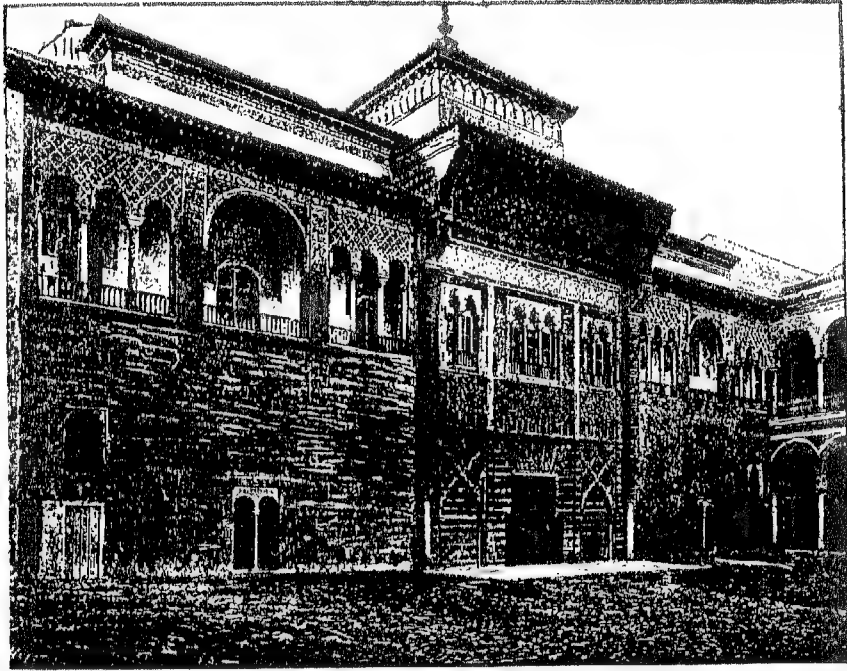
...

بعد أن طفنا في أرجاء القصر واستمتعنا بجمال زخارفه خرجنا لتجول في حديقته الكبرى التي لا تزال تحتفظ مقاعدها بالطراز العربي والتي أصبحت حديقة يؤمها الناس صباح مساء يستروحون نسائها العليقة ويتفياون ظلها الجميلة .

من القصر وحديقته الى السوارع والمنهطفات المحيطة بالقصر اخذنا نتجول سيراً على الاقدام .. كنا ندخل بعض البيوت التي يحرس الاسبانين ان يتركوها مفتوحة الابواب ليتفرج السواح على داخلها .

ومما يلفت النظر رحابة باحات البيوت ، أي صحن الدار ذات الجدران المائلة ، كما يلفت النظر ضيق الازقة كما كانت في الماضي ، وأن دلّ هذا على شيء فملى ان عرب الاندلس كانوا يهتمون بالبساتن اكثر من اهتمامهم بالظواهر ..

كنت ادخل بعض البيوت فأشعر كأني في بيوت حلب القديمة التي لا تزال



واجهة القصر في اشبيلية

تحتفظ بصحن الدار والحوض الذي تنفث من نافورته المياه وتقهـوم على حفافيه
أصص الزهر ، وبالاويان والارائك التي تحتل صدره وجوانبه وقد ازدان بالفوانيس
والقناديل .
ان أثر العرب باق في الكثير من مظاهر الحياة - في الطبايع والامزجة
والمعادات والتقاليد .

• • •

لقد أحبّ الدليل ونحن نخترق هذه الازقة والمنطفات وندخل بعض
البيوت متفرجين - احب ان يفاجأ السواح الاميركان الذين دهشوا لطراز
هذه البيوت التي تختلف كل الاختلاف عن طراز بيوتهم ومساكنهم - أحب
أن يفاجأهم بزيارة بيت ولدت فيه نجمة من نجوم هوليوود يعشقها الاميركان وتحتل
من نفوسهم مكانة كبرى ، فما كدنا نخطو بضع خطوات حتى وقف امام دكانة
لبيع الفطائر الاسبانية فدخلناها وهي اشبه بقبو على سطح الارض ، فاستقبلنا
شيخ في الثمانين من عمره امتاز بصنع المعجنات .. ولم نفهم المغزى من هذه الزيارة .
الا ان يكون هذا الشيخ هو أب الدليل فأراد اكرامه بابتياح فطائر ..
ولم يتركنا في حيرتنا فسرعان ما أعلن لنا أن البائع هو جدّ الممثلة الفاتنة ريتا
هوارث زوجة علي خان واننا في البيت الذي ولدت فيه - في بيت كانسينو
Cansino عائلة ريتا هوارث الفاتنة التي اثارت العالم زمناً برقصاتها المثيرة
وجمالها الخلاب ..

وتهللت وجوه الاميركان وارتفع ضجيجهم وانظمهم فانهلوا على الفطائر
ياكلونها بنهم ويققهون !
وأخذوا المعجوز ، بعد ان نفقت بضاعته وازدادت غلته ، - اخذيرقص مع عجوز اميركية
رقصات حفيدته ، ويقفي بصوت اجش اغنيات بلدية !
وانتهت الزيارة فصرخ الدليل هيا الى الكاتدرائية ..

• • •

وكنا جميعاً في شوق الى زيارة الكاتدرائية التي تعتبر من أفخم كاتدرائيات العالم . فلم نكد ندخل باحثها وتتجول في اطرافها حتى اخذ الدليل يشرح لنا ما تضمنه من كنوز وما فيها من زخارف ، ساعده في الشرح أب محترم جعل مهمته ان يدلل على قوة الايمان في صدور اسلافه الآباء الروحيين الذين أثاروا في نفوس مواطنهم روح الحرب وتخليص أرض الاجداد من ايدي «الكفار» حتى كتب لهم النصر وحوّل الجامع الى كاتدرائية ..!

وقد بنيت هذه الكاتدرائية على النمط الفوطي بعد أن اقيمت على انقاض الجامع الذي لم يبق منه الا مئذنته - المئذنة الشهيرة المعروفة بالجيرالدا ، وقد جاءت هذه التسمية من كلمة girar الاسبانية ومعناها يدور . يقول المستشرق بروفنسال : لقد سميت كذلك لان عليها شعاراً دينياً يدور مع الريح ..

• • •

بعد جولة استغرقت ساعة في اطراف الكاتدرائية حرصت ان اصعد الى قمة المئذنة التي يبلغ ارتفاعها كما قيل لي ، ١٢٠ متراً ، فتسلقت درجها دون أن اشعر بالتعب ، اقول درجها والاصح ان اقول طريقها ، فقد بنيت بشكل مريح حتى يقال ان المؤذن كان يصعد اليها راكباً على حصانه . ولا سيما والطريق مضيء من كثرة النوافذ المفتوحة فيها . وقد بدت لي اشيلية من قمة المئذنة على اجمل ما تكون عليه المدن .

هذه المئذنة التي كان يرتفع من قمتها صوت المؤذن قد استحوالت برجا للنواقيس ، كما استحال الجامع الذي بني في عهد الموحدين عام ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) الى كاتدرائية ولم يبق غير صحنه الذي يعرف عند الاسبانيين باسم - Patia de ta naranjos أي صحن البرتقال ..

ومن صحن البرتقال ارتفع صوت الدليل يقول ان زيارة الكاتدرائية قد انتهت ..

و كنت في قمة المثذنة .. بل كنت في ذهول وعلى غير ارادة مني ارتفع صوتي
الخافت بأذان حزين
- الله اكبر .. الله اكبر ..
حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..
ولكن ان هم المصلون الذين عمرت قلوبهم بآيمان اجدادهم الاولين ..
ما كدت أصل الى صحن الجامع واتنسم نسيمات عبير البرتقال الذي زرعت
شجيراته بأيد مباركة حتى بكيت :
اقد شيمت عبيرم .. ولكنه عبير حمل الى كل خلجة من خلجات ذاتي الألم
والشجي والبكاء والالين !

الشبيلية

من كلمات ابن رشد عن اشبيلية قوله :
 « اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ..
 واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية »
 كان وصف ابن رشد هذا على طرف لساني وأنا في طريقي الى اشبيلية ..
 فلم اكدم اصل اليها في السابع من شهر شباط سنة ١٩٥٤ حتى رأيتي ، بعد أن
 وضعت حقائتي في الفندق ، اسير في شوارعها واسواقها على غير هدى .. وما
 كدت اغوص في تلك الملتويات حتى اجتذبتني شارعها الرئيسي - ولا اذكر اسمه -
 وهو قريب من الجديقة الكبرى .

ولأشبيلية طابع خاص ، فهي مدينة الفن والطرب .. وكان اجدادنا
 الاقدمون يرونها عروس بلاد الاندلس ولا يتخرجون ان يقولوا انها اجمل مدن
 الدنيا .. وقد يكون هذا القول شبه صحيح بالامس .. أما اليوم فحسبك
 ان تقول انها مدينة وادعة مشرقة ، تعيش في جو بهيج من الحب والرقص والغناء ..
 فيها ما في الكثير من المدن من مظاهر تسر الناظرين ..

وفي اهلها ميل الى المرح والطرب والسرور ، وقديما وصفها أحد ادياء
 الاندلس بقوله ، ويضرب باهل اشبيلية المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان

الساعة بعد الساعة ،

وكأنما هذه السجية لم تتبدل منذ الازل .. وانا محدثك عن هذه الظاهرة التي رأيتها رؤية العين .

ففي شارعها الرئيسي الذي يفض بزم الناس ، والذي تنتشر على جوانبه البيوت والمخازن والمقاهي والكنائس والكاتدرائيات .. وفي الفترة التي تمر بين عتمة المساء وانبلاج الاضواء تشاهد على رصيفي الشارع صوراً خلابة من هذه المعارك التي يحدث اوارها بين الشباب والشابات - معارك تنور فيها المواطنف وتهيج المشاعر وتراقص الاجسام وتحقق الميول وترن الضحكات ..

يطارد الشباب الرانحات الغاديات .. وقد ينصبون لمن الشابك فلا يكدن يقتربن من شابا كهم حتى ينفرن ضاحكات مترنحات ، وقد يصرعن بالحاظن وغنجن غير مباليات .

شهدت مطاردة من مطاردات الهوى والشباب .. وقد دهشت - وهنا لب القصة - دهشت لجرأة شاب يسير مع صحبه شبه مترنح .. لم يكد يقترب من سرب فتيات كالورد حتى اختطف قبله من احداهن .. اي والله .. اختطف قبله من فتاة ريقة الصبا تسير مع لداتها الفاتنات .. وسار في نشوة عجيبة كأنه خرج من المعركة ظافراً ، ثم تلفت ليري الأثر الذي تركته قبلته .. فلم يسمع غير رنين الضحكات .. وكأنه لم يقترف اثماً ولم يأت امراً اذاً ..

ولم تثر الفتاة .. ولم تغضب .. ولم تستنجد بالشرطي .. بل تورد خذاها وستر خجلها او فرحتها لا ادري بضحكة رقيقة ناعمة .. ثم تضاحكت مع رفيقاتها - تضاحكن مزهوات .. وربما حسدنها او غبطنها لهذه النعمة التي حرمن منها .

القبلة رمز الاعجاب والمحبة

ولا خير ان يطبع الشاب قبلته الخاطفة على خد الفتاة .. فقد تكون هذه القبلة هي الطريق الممهد للزواج والسعادة الازلية

وتكرر المنظر

وشهدت فصول هذه الرواية العاطفية تمثل امامي على مرأى من الناس دون
العلمة الرصاص ودون وقوع الجرحى والقتلى - الا جراحات القلوب التي تدميها
سهام العيون .

انه مشهد من فصول رواية تحمل في اطوائها ومناظرها المثيرة قصص
الحب العنيف .

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموسم فلقاء

واكن لا . . ان الفتى الاشبيلي ينكر هذا الدستور الرتيب الذي
خطته عبقرية شوقي للحب . انه في عصر الذره .. يريد ان يطوي مراحل النظرة
الآكلة والابتسامة المعزية والتحية الندية والكلام الممسول بقبلة حارة .. انها اقصر
طريق للموعود فاللقاء ، او للحياة الزوجية اذا لم يرد العث .
ان فتاة اشبيلية صورة جميلة من صور الحياة العارمة المليئة بالوجد
والهجة .. انها بقدها المشوق .. بخطواتها الرشيقة .. بضحكاتها التي
ترن كالبلور .. بخدودها الموردة .. وباتفااتها التي تنهب القلوب - انها
فتنة للناظرين ..

ومظاهر التحية - اريد هذه القبلة الخاطفة - هي التي لفتت نظري ..

انها لا تشبه قبلة الباريسيات التي يكمن في صميمها الحب والمهر
والخنا اريد القبلة السبي تتوزع على قارعة الطرق وفي الحدائق وعربات
المترو وفي كل منطقة مكشوفة لا . . فقبلة شباب اشبيلية هي قبلة الاثارة - القبلة
الخاطفة التي ترمز الى تقدير الجمال - قبلة اللهو البريء والود الخالص
من هذه الفتاة الاشبيلية التي حامت حولها القلوب وطبع الشباب والعابثون
اكثر من قبلة على خدها الموردة وخدود لداتها الفاتنات ؟

اتكون حفيذة ولائدة !

ايكون هذا الشاب العايب حفيد ابن زيدون !

لقد وددت ان ارجع من الكهولة الى الشباب لأمر بهذه التجربة .

ولكن لا .. فما زال فينا ، ولو عدنا الى عهد الشباب - ما زال فينا بقية
من حياء ..

وقد رجعت بي هذه القبلات ، يخطفها الشباب من خدود الاشباليات
رجعت بي الى عهد اديبة الاندلس ولادة بنت المستكفي بالله التي لم تتحرج ان تطرز
على عاتقي ثوبها البيتين المشهورين :

انا والله اصلح المعالي وامشي مشيتي واتيه تها
وامكن عاشقي من لثم خدى واعطي قلبي من يشتهيها
نعم ، رأيت حفيدة ولادة تعطي قلبها لمن يشتهيها
ثم سارت في طريقها تثير الضرام في قلوب العاشقين
كنت زائغ البصر .. ورجعت الى الماضي .. والعربي ، في الاندلس لا
يستطيع ان ينسى ماضي فردوسه المفقود .

ذكرت ولادة .. معشوقة ابن زيدون .. ذكرت حبها العنيف .. وصالونها
الادبي المنيف .. وتهافت الشعراء والادباء على التنزل بها ، والاستمتاع بجلو حديثها ..
والتنعم بأشراق جمالها .

وقصتها مع ابن زيدون .. ومع ابن عبدوس .. ومن حام حولها من الادباء
والشعراء تفوق في عنفها قصص جورج ساند وقصص الكثيرات ممن اشتهرن بالحب .
كانت ولادة امرأة نهمة .. أحبت الرجال واحبت النساء .. وقد عاشت حياتها
في جو البذخ والترف .. وفي المرح والمجون

ربما كانت قصتها - قصة الكثيرات ممن يعطين لاهوائهن العنان دون حرج
ورثت عن ابيها المستكفي بالله الكثير من خصائص لهوه ومرحه .. ولم
تكن سيرة ابيها سيرة عبقة - فقد اجمع المؤرخون على ان المستكفي كان يعين خلفاء
الاندلس الوحيد الذي ازدرى يشئون المملكة فانغمس في ملذاته واطلق العنان
لشهواته . وهذا الذي دفع الشعب ان يثور عليه ، وان ينهب قصوره فاخفى في
ضاحية عند امرأتين - ربما كانتا من جواريه وخليلاته .. ، ومع ذلك فلم ينبج من
الهلاك ودس له أحد الضباط السم فمات .

وصفه أحد معاصريه بقوله كان المستكفي بالله ربعة أشقر، أزرق، أشم، مدور الوجه والاحية، ضخم الجسم، كبير البطن، صاحب اكل وشرب وجماع «
الا تنطبق هذه الملامح على الملك فاروق؟

وقد تزوج المستكفي اكثر من امرأة واحدة .. عرييات وامبانيات ..
وكانت زوجته الاخيرة امة اسبانية وهي بنت مسكرى الموروثه .. ويذهب بعض المؤرخين الى أن هذه الاسبانية هي أم ولادة ..

ورثت ولادة الشيء الكثير عن ابوها .. فنارت على تقاليد المجتمع .. ونزعت عنها الحجاب .. وفتحت قصرها للمطاء والادباء والشعراء والفنانين .. وكان للكثير من الخصائص التي تميزت بها من جمال وثقافة وثروة ما جعلها مرموقة في المجتمع الاندلسي، وقد وصفها عبدالله بن مكي، وكان ممن يتردد على صالونها الادبي بقوله « كانت واسعة الثقافة، غزيرة العلم، وبخاصة في فنون الشعر والادب، مما اتاح لها مساجلة الادباء ومطارحة الشعراء ومناظرة العلماء »

وغير ابن مكي كثيرون كالقري وابن نباتة وابن بسام الذي كان يقول عنها « ويمشو اهل الادب الى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلوة عشرتها »

وما من اديب عاصرها وعاش فترات ينعم بادبها ويحضر مجالسها الا قال فيها شيئاً .. وهذا ابن خاقان الاديب الوزير يقول « كانت من الادب والظرف وتغنيم السمع والطرف بحيث تحتلس القلوب والالباب وتعيد الشيب الى الشباب »
وذكر احدهم بأنها كانت عذبة الصوت وذات صنة في الغناء ..

وهذا الذي جعل قصرها يموج بكل ذي موهبة .. وكان في طليعتهم ابن زيدون الشاعر الاديب الوزير الذي احبها واحبته وقال فيها الشعر والنثر وتبادلا ارق العواطف .. وكانا يتطارحان الهوى ويحتمان في غفلة من عيون الرقيب فاذا ما التقيا كان ذلك في الليل .. فحين مهدت لاول لقاء كتبت اليه محترمة حذرة تقول :

ترفب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل اكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
وكان اللقاء، وتتما بافاويق الحب .. ولكن مهل هذه العلاقة لا يمكن ان
تظل سرًا .. ولا سيما وقد نظم ابن زيدون الكثير من القصائد والمقطوعات معبرا
عن عاطفته الجياشة الملتبة .. وكانت صلته بها جد وثيقة .. واذ كان لكل علاقة
من علاقات الحب نكسة ، فقد اصبحت ولادة بنكسة جد قوية - نكسة جرحت
عاطفتها وثملت كبرياءها وكرامتها .

ويظهر ان ابن زيدون كان من اولئك العشاق النهمين الذين يحبون المرأة
للمتعة ، كان شاذًا في ميوله الجنسية، وكان يلتبس الشهوة العارمة سواء اُجاءت عن
طريق الحب ام عن طريق اللذة ولا شيء الا اللذة .. فقد احب جارية ولادة
وكانت جارية سوداء ، فسبق بودلير في الشذوذ .. ولم تكذب تشمر ولادة بهذا
التحول حتى غضبت وثارت .. هجرته وتحولت الى خصمه وعدوله ابني عامر بن
عبدوس .. وكتبت الى ابن زيدون معاتبة مغاضبة

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهـو جارقي ولم تتخير
وتركت غصنا مشرًا بجـهاله وجنحت للغصن الذي لم يشر
ولقد علمت بانني بدر الدجى لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

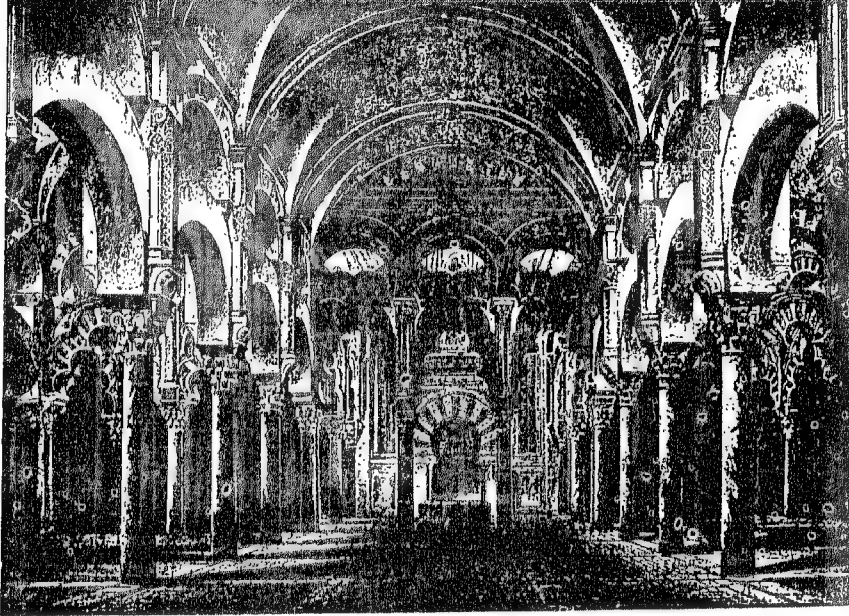
وهذا الشذوذ دفعها ان تسير هي في نفس الطريق .. فمن مبادؤها انها
احبت مهجة بنت التبانة القرطبية ، وكانت من اجمل نساء زمانها واخفهن روحا،
فعلقت بها ولادة ولزمت تأديها الى أن جعلت منها شاعرة مرموقة .. ولكن هذه
الصلوات لم تدم وانقطع ما بينهما بل انقلب الحب الى بغض، والمودة الى كراهية، والصداقة
الى عداوة، وكانت مهجة طويلة اللسان فهجتها .. وتذكر كتب الادب ابياتا في الهجو
لا يحسر الرجل ان يقولها .

وهكذا ، فقد كان في حياة ولادة مفارقات عجيبة . وكان لهجرها ابن
زيدون اثر في نفسه . وحياة ابن زيدون سلسلة متماسكة من الاحقاد والمتاعب ..
من الوزارة الى السجن .. ومن الحب الى النفي .. وليس هنا مجال الحديث عن ابن
زيدون الذي ظل ، في جميع مراحل حياته، يحمل لولادة اصدق حب واجمل

عاطفة ، وكان يرسل اليها القصيدة تلو القصيدة ، مستغفراً عن فعله .. ولكن هيهات .. فقد تنسى المرأة كل شيء ، وتصفع عن كل زلة ، وتففر لمن اساء اليها منها عظمت الاساءة الا من يجرح عاطقتها ويمس كبرياءها ويسدل حجبها بحب امرأة أخرى ، ولعل اجمل قصائده التي تعتبر من اجمل قصائد الحب التي نظمها شعراء الاندلس - قصيدته « النونية » التي يتشوق بها الى ولادة ويدعوها الى اللحاق به ، ويذكر معها ايامه ولياليه :

بتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضاثرنا يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم ايامنا ففسدت سودا وكانت بكم ايضا ليالينا
نعم ، في اشبيلية ، وعلى ضوء تلك القبلات التي كان يخطفها الشباب خطفا
من خدود الاشبيليات تراءت لي ولادة .. وعلى غير وعي مني كنت انشد في ذلك
الشارع المزدهم الشطر الاخير من بيتها الشهيرين
- واعطي قبلي من يشتمها -

لقد رأيت الفتاة الاشبيلية ، حفيدة ولادة - تعطي قبلتها للفتى الاشبيلي دوغما
حرج ، بل في جو من الضحكات التي تملأ الشارع الكبير كأنها موسيقى مثيرة تنقلك
الى عوالم من دنيا المباحج والذاذات !



داخل جامع قرطبة

إلى قرطبة

١٩٥٤ / ٢ / ٩

أي نشوة خالجتني حين أخذنا نطوي الجبال والأودية ، طياً سريعاً إلى قرطبة المدينة التي تعتبر من أعظم مدن الاندلس وأحفلها بتاريخنا الحضاري . وما الاندلس ، في الواقع ، غير مدنها الكبرى - غير غرناطة واشبيلية وقرطبة التي كانت خلال ثمانية قرون مسرحاً للكثير من الاحداث السياسية والعمرانية والحضارية فتركت آثاراً ما تزال تنطق بعبقرية العرب في الخلق والابداع والانشاء رغم تعاقب القرون ، وكانت قرطبة في طليعة تلك المدن الكبرى .

بعد أن قطعنا الكثير من السهول والأودية والجبال بدت لنا قرطبة بوجهها المشرق .

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدربين زبرجد مكنون
لم أكد اتبين بعض معالمها حتى طلبت من السائق ان يسرع الخطى . وكلا
اقتربت منها ازداد شوقي للقائها أكثر .
اننا نشرف عليها من عل .

وقد بدت لي من قريب كأنها مدينتي الحبيبة .. نعم ، بدت لي قرطبة كما تبدو
لي مدينة حلب حين أعود إليها بعد سفرة بعيدة ..
ان لقرطبة في ذهني أجمل صورة ، فما كدنا ننحدر من جبالها
الاشم إلى سهولها الباسمة حتى شعرت شعور من تتحقق له اعذب أمنية حلم
بها طويلاً ..

كان الدليل في شبه غفوة ، فلم نكد ندخل تخومها حتى هزه السائق هزة
عنيفة وإذا به يستيقظ ، وسرعان ما أخذ يثرثر ، بصورة عفوية - بهذه الكلمات
والجمل التي طالما انسلت على اطراف لسانه يقرع بها آذان الآف السائحين ..
أخذ يحدثنا عن ماضي قرطبة المشرق أيام العرب ، عن جامعها الذي
منزوره قريباً .

اننا نمر من فوق جسرهما الذي لا يزال يحتفظ بطابعه العربي .. وها هي
ذي طواحين الهواء تترأى لنا وقد اقيمت في المزارع والحقول .

ويسير السائق ببطء

وللتفت يمنة ويسارا

والدليل ماض في ثرثرته .. يعيد ويكرر نفس الجمل والعبارات التي طالما

رددتها يفظان دائماً ...

ويشير الى كل ساحة ومبنى ، والى كل متجر ومصنع ، والى كل

ساحة وحديقة ..

لقد دخلنا المدينة آمينين .. وإذا هي ، بشوارعها وحدائقها تبتسم بوقار

وحشمة ، وكأنني بها تحيي زائريها تحية من يتكلف التحية .. ليست هذه التحية
الصميمية التي تنبع من القلب ..

ولا اعلم السبب .. شأنها في ذلك يختلف عما هي عليه اشبيلية ..

ووالينا السير .. اننا ازاء قنطرة تملو باباً عربياً عند مدخل المدينة ، نمبر

منه الى الشارع الرئيسي ، المسمى شارع النصر - أيكون انتصار فرانكو على
خصومه ..؟ لا اعلم ..

وهو شارع جميل ازدهان بأشجار النخيل ..
الى الفندق .. فندق سيمون
لقد وصلنا شبه متعبين
اما انا فقد كنت في نفوة ، فلم تكذب تحتويني فرطبة حتى زابلي
التعب ..
اريد ان ازور كل حي .. كل بقعة .. ولا سيما البقاع العربية والآثار
الاسلامية .

- ٢ -

لا نكاد نأخذ قسطنا من الراحة ونتناول غذاءنا حتى يرسم لنا الدليل
برنامج الزيارة ..
والمستيكأي « الجامع » في طليعة الاماكن التي يريدنا ان نزورها ..
وهو بفتي الكبرى من زيارة قرطبة ..
ولهذا الجامع حديث طويل في كتبنا وفي كتب مؤرخي العالم .. انه
كقطر الحراء ، يعتبر من اجمل واضخم الآثار الاسلامية التي تركها العرب ولا يزال
يحتفظ الى الآن بروعة وينطق بروحهم البناء وبمقربتهم المشعة ..
سار الدليل امامنا وتبعناه نسير في هذه الطرق الضيقة والجوارد الملتوية التي
لا تختلف قط عن الكثير من طرق مدننا وجواردها .
كان الطريق المؤدي الى الجامع واضحا كل الوضوح لكثرة الاشارات والاسهم
التي وضعت وقد كتب عليها بالاسبانية « La mezquita » ، أي الجامع ..
ووصلنا ، فما كدنا نجتاز بابه الرئيسي الواسع الضخم الذي نصبت فوقه
القناطر الحجرية المزخرفة والبالغة الروعة والذي يبلغ ارتفاعه عشرة امتار
والمصنوع من الخشب المزدهان بآيات من القرآن - اقول لم نكد نجتاز الباب الرئيسي
الى ساحته الكبرى حتى شعرت بالاعتزاز وبالحشوع ..
ووقفت طويلا امام البواب ، قبل ان اعبر قنطرته ، أتأمل نقوشه وافك
طلاسم الكلمات .. وتفقدني الرفاق .. وصاح الدليل فنبعثهم مهرولا ..

انسا في قلب الساحة - ساحة البرتقال التي لا تزال تحافظ على اسمها القديم ، وهي ساحة واسمة ازدانت بصفوف من اشجار البرتقال تتوسطها بركة كبيرة اصبحت مياهها منهلا لآبناء الحي بعد ان كانت لآبناء السبيل ولوضوء المصلين ..

والى جانب الحديقة اروقة تعلوها القباب وقد زخرفت اقواسها وقناطرها بالنقوش العربية والآيات القرآنية ..

دخلنا حرم الجامع دون ان نخلع احذيتنا ، وقد بدت ارضه خالية من السجاد والطنافس ، ولشد ما اذهلنا ، بل لشد ما اذهلني ان أرى كاتدرائية تجثم في طرف من قلب الجامع ..

وابناء الكاتدرائية قصة ارجيء الكلام عنها بعد جولة في رحاب الجامع ..

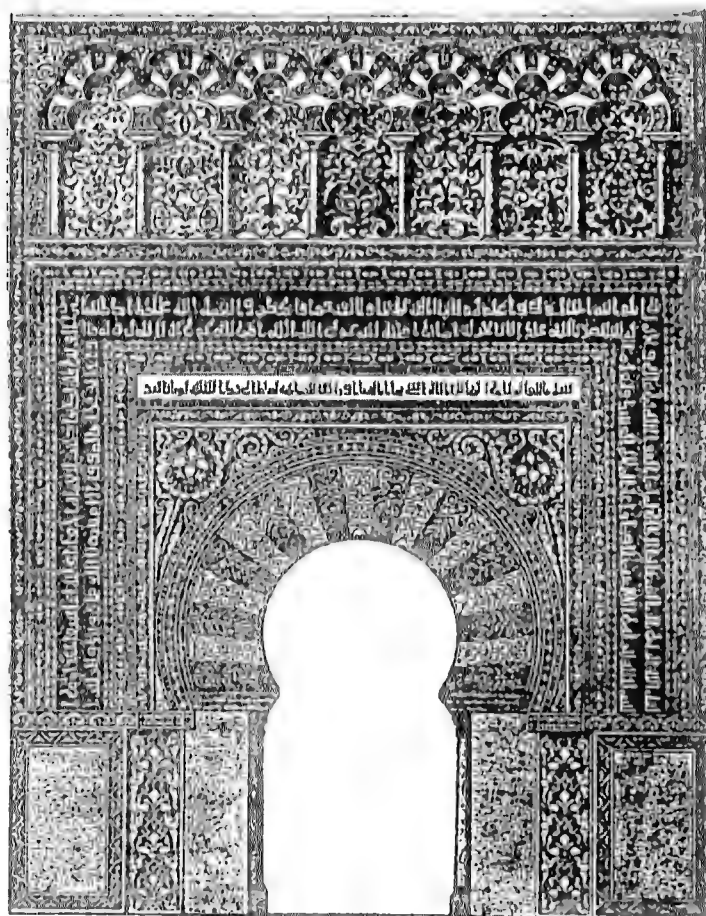
انني اسير متند الخلى ، تأمل هذه الأعمدة التي تذهل النظر ، فحيثما وقف الانسان يجد خطأ مستقيما من الأعمدة ، فادا انحرف شمالا أو جنوبا ، شرقا أو غربا تراءت له نفس الاستقامة ؛ نعم ، انك لتذهل حين تقف ازاء هذه الصفوف التسعة والثلاثين من الأعمدة المنتصبة كالمرايس الممراة من زيتن، يقابلها من الشرق الى الغرب تسعة عشر صفاً من الرواق المؤدي الى المحراب - هذه الأعمدة الرشيقة الحزينة التي يرتبط بعضها ببعض بقناطر والتي تحمّل سقفاً مزخرفاً بنقوش جميلة هذه الأعمدة البالغ عددها ألف عمود تقريباً والتي ما تزال تحتفظ الى يومنا هذا بجهاها تجملتك تشعر كأنك في غابة من غابات النخيل وقد تعرضت للعواصف والاعاصير ..

...

إن المصلون ؟

كان أكثرهم وهم من جنسيات مختلفة . قد اتجهوا الى الهيكل - هيكل الكاتدرائية يركعون ويصلون ويطلبون الغفران ..

ووقفت وحدي حزينة وتساءلت والدمع يذرف من عيني .. أين المصلون ؟



عراق جامع قرطبة

ثم رأيتني اتجه الى المحراب اصلي ركعتين لله تعالى أن حفظ للاسلام هذا الجامع الذي اقامه خلفاء بني امية رمزاً لعظمة الاسلام ولجهد العرب ..
 هذا الجامع الذي يعتبر ، رغم تقادم السنين - آية من آيات الفن المعماري
 بجمال روعته ، بزخارفه ، بمعمده المرمية - بمقوده ، بأروقته ، بهذه النقوش التي
 زينت جدرانها ، بمحاربه البديع الذي لا يزال يحتفظ بجمال نقوشه وصفاء عقودها ،
 وبريق مرامره المتعددة الالوان ..
 أي محراب هذا ؟
 انه قطعة فنية نادرة ..

تقف ازاءه متأملاً فلا تشبع من النظر اليه ..
 أي يد صناع وأي ذهن عبقرى زخرف هذا المحراب ؟
 لقد ازدان بقطع الفسيفساء المتعددة الألوان والتي تبهـر النظر .. الى
 مرمر أبيض ملمس ما يزال محافظاً على بريقه ، الى اقواس وعقود زهبت عليها
 مختلف النباتات .
 ولعل أكثر ما يروق الناظر الى جمال هذا المحراب - الفسيفساء الخضراء
 ذات البريق المشع وقد ازدانت بآيات من القرآن الكريم محفورة من ذهب على
 صحائف متباعدة الالوان من زرقاء وحمراء ..
 والأعمدة الصغيرة التي اقيمت تحت القبة ما أرشقها ؟ انها اعمدة ذوات
 تيجان مذهبة .

على أن أكثر ما يدهش الانسان ان يرى هذه الالوان وكأن الممارين
 والفنانين قد فرغوا من صنعها هذا العام لا قبل الف عام !
 أن جمالها يخلب النظر ، وقد يقف السائح ازاءها طويلاً وهو في ذهول عميق .
 تصورت هذا الجامع في عهد ملوك بني امية وخلفائهم يوم كانت قرطبة
 من أعظم العواصم الكبرى في الشرق والغرب ، وقد بلغ عدد نفوسها قرابة
 المليون ، وازدانت بالقصور والحدائق والنازل والمدارس والمستشفيات حـتى

كادت تبرز بغداد عاصمة العباسيين في أزهر أيام مجدهم تصور هذا الجامع
وقد غص بآلاف المسلمين ولا سيما في أيام الجمع والاعياد وفي ليالي رمضان،
وقد اضيئت قناديله وثرياته وصوت المنشدين والمؤذنين يعلو ويرتفع بالتسايح
والآذان . تصورت ماضيه المشرق وحاضره المحزون وقد خلا من كل مظاهر الاسلام
فجزنت ورأيتي اردد مع شوقي :

خفست الآذان فما عليك موحد

يسمى .. ولا الجمع الحسان تقام

وخبث مساجد كنا نوراً جامعاً

تمشى اليه الأسود والارآم

يدرجن في حرم الصلاة فواتنا

بيض الازار كأنهم حمام

ورأيتي استخلص العبرة البالغة مما كنا عليه وما صرنا اليه - من
امبراطورية مترامية الاطراف في الشرق وفي الغرب - الى وضع مزرقة لا يثاق
كثيراً عما كان عليه ملوك الطوائف في تلك الفترات السود التي انطوت فيها راية
الاسلام بعد ان خففت على روائي الاندلس طويلاً .

خلت القرون كليلة ، وتصرمت

دول الفتوح كأنها احلام !

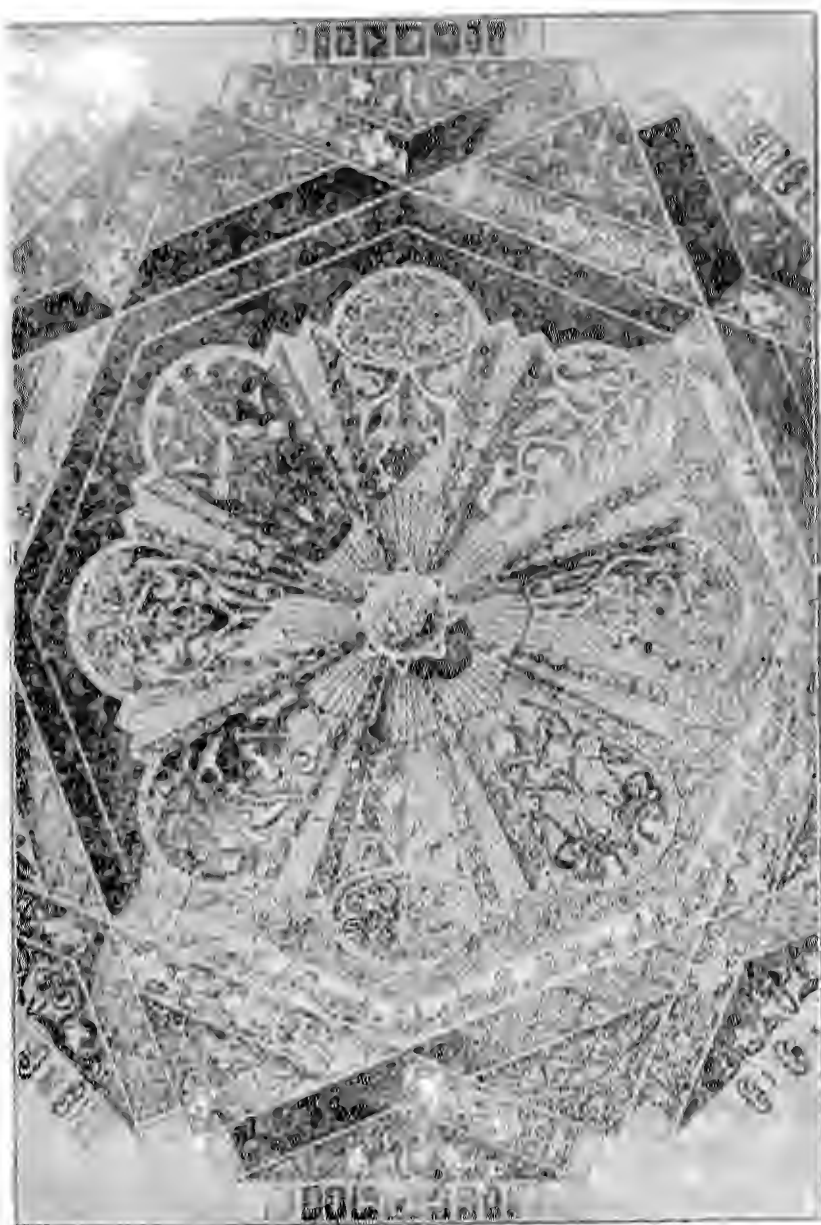
والدهر لا يالو الممالك منسذرا

فاذا غفلن فما عليه سلام !

هذا الجامع الذي يبدو لك حزيناً كيف كان ؟ من بُناته ؟ ما هي الاموال
التي صرفت عليه ؟

يحدثنا المؤرخون احاديث عجيبة عن بناء هذا الجامع الذي كان أعظم
جوامع العالم الاسلامي كله ..

ولا علينا ان نزوي قصته كما جاءت على لسان ثقافة المؤرخين ولا سيما الذين



زخارف سقف عرابي جامع قوطية

عاشوا في قرطبة وشاهدوه وهو في اعظم مظاهره وازهى زينته وابهى حاله التي
تشع بنور الاسلام .

- ٤ -

يقول المقرئ في نفع الطيب :
واما مسجد قرطبة فشهرته تفني عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر من .
اوصافه ، وننشر من احواله ما لا بد منه فنقول :
قال بعض المؤرخين :

ليس في بلاد الاسلام اعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة ، وكما
اجتمعت منه اربع سواركان رأسها واحد ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد
في اعلاه واسفله ..

وكان الذي ابتداء بناء هذا المسجد العظيم عبدالرحمن بن معاوية المعروف
بالداخل ولم يكمل في زمانه وكمله ابنه هشام ، ثم تولى الخلفاء من بني أمية على الزيادة
فيه حتى صار المثل مضروبا به .
والذي ذكره غير واحد انه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن
كمل على يد نحو الثمانين من الخلفاء .
وقال بعض المؤرخين :

ان عبدالرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم - بني القصر بقرطبة ،
وبني المسجد وانفق عليه ثمانين الف دينار وبني بقرطبة الرصافة تشبها برصافة
جده هشام بدمشق .
وقال بعضهم :

انه انفق على الجامع ثمانين الف دينار ، واشترى موضعه - اذ كان كنيسة -
بمائة الف دينار

وفي الحديث عن قرطبة التي اتخذها عبدالرحمن الداخل عاصمة ملكه
يقول بعض المؤرخين :

انه لما عهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة فجسد مغانيها وشيّد مبانيها ،
وحصّنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسّع فناءه ، وأصلح
مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة منتزهاً له ، واتخذ به قصراً وجناناً
واسعة نقل اليها غرائب الفراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من
الاقطار .

وكانت أخته أم الأصبح ترسل اليه من الشام بالفرائب مثل الرمان العجيب
الذي ارسلته اليه من دمشق الشام كما مر .

• • •

وحين ضاق المسجد بالمصلين قرر المنصور بن ابي عامر أن يوسّع الجامع ،
وكانت بعض الدور المحيطة به لنفر من الاسبانين فحرص الا يكون اتوسع على
حسابهم بل على حساب بيت مال المسلمين .
يقول ابن بشكوال :

لما عزم المنصور على زيادته هذه جلس لأرباب الدور بنفسه ، فكان يؤتي
بصاحب المنزل فيقول له :

ان هذه الدار التي لك يا هذا أريد ان ابتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيهم
لأزیدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط وأطلب ما شئت .

فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر ان يضاعف له ، وأن تشتري له بعد ذلك
عوضاً منها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت لا أقبل عوضاً
إلا داراً بنخلة .

فقال : تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال .. فاشتريت لها دار بنخلة
وبولغ في الثمن .

- ٥ -

وفي حدود سمته ومن زاد في هذه السعة الى وصف الأروقة والأبواب
والمقاصير يقول صاحب كتاب « مجموع المفترق » .

وكان سقف البلاط (١) من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعا ، والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة اذرع .

ثم زاد الحكيم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع . فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعا .

وزاد محمد بن ابي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا . فم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعا .

وكان عدد البلاط احدى عشر بلاطا عرض اوسطها ستة عشر ذراعا ، وعرض كل واحد من الذين يليانه غربا والذين يليانه شرقا اربع عشرة ذراعا ، وعرض كل واحد من الستة الباقية احدى عشرة ذراعا .

• • •

وبعد ان يسهب بهذا الوصف ويعدد الأذعة طولا وعرضا ينتقل الى ابواب الجامع فيقول :

وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة في صحنه غربا وشرقا وجوفا ، واربعة في بلاطاته — يريد أروقته — اثنان شرقيان ، واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميع ما فيه من الاعمدة الف عمود وثلاثة وتسعون عمودا رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه ، قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء وثرى بالمقصورة فضة محضنة ، وارتفاع الصومعة اليوم — وهي من بناء عبدالرحمن بن عيسى — ثلاث وسبعون ذراعا الى اعلى القبة المتفجرة الى يستديرها المؤذن .

وفي رأس هذه القبة تفاييح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف .

فائنتان من التفاييح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها

(١) يريد الرواق

وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزرج وهي إحدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور في بيت منسبر مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - الذي خطه بيده وعليه حلية ذهب مكللة بالدار والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب . .

والنبر مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط وما اشبه ذلك (١) وبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم .

... .

وللثريات والمصاييح والقناديل والشموع حديث طويل . فقد ذكر ان عدد ثريات الجامع التي تسرج فيها المصاييح بداخل البلاطات خاصة سوى ما فيه على الابواب : مائتان واربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون (٢) مختلفة الصنعة .

منها اربع ثريات كبار معلقة في البلاط الاوسط . اكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة وهي تحمل الف مصباح وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر احد على وصفه .. وفيها من السرج - فيما زعموا - الف واربعائة واربع وخمسون ، وتستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الاخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثريا منها سبعة ارباع في الليلة .

... .

(١) النبع من اشجار الجبال ينبت في فلتها وهو اصفر الود رزينة ثقيلة في اليد ، واذا طال عليه العهد احمر ، تمنع منه الفسي الجيدة التي تكرم كل ما اتخذ من غيرها اشدة النبع ولينه . ولا يكون العود كريما حق يكون كذلك . وتتخذ السهام من اغصانه . والبقم خشب شجرة عظام ، ورقه كورق اللوز ، وساقه احمر يصبغ بطبيخه . والشوحط ضرب من شجر الجبال تتخذ منه الفسي .

(٢) اللاطون هو النحاس الاصفر

هذا الجامع العظيم الذي لا نظير له في دنيا الاسلام والذي كان آية من آيات الفن والروعة والجمال أصبح اليوم خواء تعصف بأروقته الرياح ، وقد عُري من كل زينة ومن كل مظهر من مظاهر الدين الحنيف ، فلا آذان يرتفع ، ولا مصلون يركعون ويسجدون ، ولا أئمة ولا خطباء ، ولا شيء غير السامعين يخطرون في أروقته ويتجولون بين اعمدته ثم يقفون مهوئين امام محرابه وما هي الا لحظات حتى يتحولوا الى الكاتدرائية يركعون ويصلون !

- ٦ -

ولبناء الكاتدرائية في قلب الجامع قصة طويلة كما قلت :
فحين جلا المسلمون عن الأندلس واثرت قاترة الاسبانيين الدينية عمدوا الى هدم الجامع وإزالة كل معالمه ..

وبالفعل فقد هدموا قسماً كبيراً منه وأقاموا مكانه كاتدرائية ..
وحين انتهى بناؤها مما اضفى عليها من الوان الزخرفة ، بدت باهتة اللون، فما بلغت جمال الكاتدرائيات التي تزينها عبقرية الفن ، وشوهت جمال الجامع الذي تنطق كل حنية من حناياه بهمال الفن .

ولما بدا التشويه صارخاً انتبه عقلاء الاسبان وعلى رأسهم مليكهم فيليب الثاني فأصدر أمره بالتوقف عن الهدم ، وإبقاء ما لا يزال بارزاً بمظمتة الى الآن ، ثم أصدر قراراً بقتل كل من يحاول تخريب أي شيء فيه . وفي رواية ان شرلكان هو الذي أذن بتشديد هذه الكاتدرائية قبل أن يرى الجامع ، ولما زاره بمد بضع سنين بهره جماله ، وتدم على ما بدر منه وقال : « لو علمت ذلك قبلاً ، لما أذنت بأن تهدم حجرة واحدة من بناء هذا الجامع . انكم بينائكم هذه الكاتدرائية وسط هذا الجامع اقمتم شيئاً يُرى امثاله في كل مكان ، محل شيء لا مثيل له ، ولا في مكانه .

وهكذا فقد انتبه الاسبانيون بمد هذه المحاولة الى الجناية الكبرى التي ارتكبوها بهذا العمل التخريبي الذي مس جمال الفن في الصميم .

ولا يزال عقلاؤهم الى اليوم. يذكرون ذلك بندم مرير ! إذ لولا هذا الجامع لما عرفت قرطبة وجه أي سائح ، ولظلت مدينة مهجورة بعد ان كانت في عهد العرب عاصمة من اعظم عواصم الدنيا - تحتوي على مائة وثلاثين الف منزل ما عدا منازل كبار الموظفين وثلاثة آلاف مسجد وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسماية حمام وثمانين خاناً - أي فندقاً - .

- ٧ -

بعد زيارة الجامع رجعنا الى الفندق ، وكنا خمسة على مائدة الطعام : هندي كبير من موظفي هيئة الامم المتحدة ، وسيدة اميركية ذكية القلب والشعور تعمل سكرتيرة في هيئة الامم المتحدة ، ومدير محطة تلفزيون كندا وزوجته ، وقد اثير الحديث حول الجامع ووضعه الذي انتهى الى هذا التخليط الذي أزرى بقداصة الفن فأجمعوا جميعهم على استبكار ما اقترفه الاسبان من أعمال اساءت الى عظمة الفن ، وودوا مخلصين ، واسبانيا تبرز ايطاليا بكنائسها وكاتدرائياتها - ودوا مخلصين أو مجاملين لمربي ينتظم في تلك هذه الرحلة - لو عمد الاسبانيون الى ازالة الكاندرائية واعادة الجامع كما كان في سالف الازمان .

قال الهندي : ان مصلحة اسبانيا القرن العشرين أن تزيل كل اثر من مخلفات الماضي .

واجاب الكندي : وهل تستطيع ذلك ، فهي ، وما زالت ، بالرغم من الحكم الدكتاتوري الذي يستطيع ان يجترأ على كل شيء - ما زالت تعيش تحت سلطان الكهنوت وديكتاتوريتهم الرهيبة !! .

وتحدثت الاميركية حديثاً بعد كل البعد عن هذا الموضوع ثم سألت الدليل عن سهرة ممتعة نقضها في أحد ملاهي قرطبة .

وكنت متعباً فاستأذنت بعد العشاء وأويت الى غرفتي اقرأ واجترأ ذكريات الماضي بنصته . ألم !

- ٨ -

ثُركت قرطبة صباح هذا اليوم مغمورة بالضباب وكانت نفسي مغمورة بالضباب .

دخلت المدينة متلذلة الوجه وخرجت منها كئيب النفس لعوامل كثيرة ألمت اليها ارباعاً ، ولا أقول هذا من حيث الشعور الديني فاننا رجل بتسامح ، وكثيراً ما افلسف هذه الامور فلسفة قد احاسب عليها من المتزمتين : واحمد الله ان فكري قد وسع كل شيء ، وأصبح قلبي ، كما يقول ابن عربي ، قابلاً لكل صورة :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لنزلات ، ودير لرهبان
ويدت لأوثان وكمبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب اني توجت
ركائبه فالحب ديني وإيماني
وحب الفن هو الذي تركني أضيق بهذه الكاتدرائية نجثم في قلب الجامع
فتشوه الكثير من معالنه ..
ولشد ما آلمني الدليل ليبرر عمل اجداده في إقامة هذه الكاتدرائية فقال
لولا اقامتها هنا لحطم البربر الجامع !!
وكأنني به قد خجل ان يقول الحقيقة ، فبراً قومه مما اقترفوه من
إجرام ، وإن غلط الواقع بهذا التخليط المسموم الذي كثيراً ما تحتسى به عقول
السواح السذج !

. . .

نعم ، تركت قرطبة منمورة بالضباب وكانت نفسي بدورها منمورة بالأسى والضباب .

هذا ، وقد حرصت قبل أن اغادر قرطبة ان أزور الزهراء المدينة التي تحدث عنها الادباء والشعراء والمؤرخون ووصفوها وصفاً عجبياً - وصفوا قصرها وجامعها ومنازلها وحدائقها وتماثيلها ابلغ وصف ، كما وصفوا ما كانت تضم من حرم وخدم وحرس وحشم ..

أين تقع هذه المدينة التي اقامها عبد الرحمن الناصر لتكون مقر خلفاء بني أمية وسماها « الزهراء » باسم إحدى محظياته فنقش ، فيما يروى ، صورتها على بابها !

سألت الدليل عن موقعها وأبدت رغبة ملحّة بزيارتها .. فوجم .. ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال : انها ليست في برنامج الزيارة ..

وحين ألححت .. قال انها بعيدة ..

قلت لا بأس .. ولا بد من زيارتها ..

ورسم لي مخطط السير واستأجرت سيارة قادتنا الى منطقة تبعد خمسة كيلو مترات عن قرطبة ..

لم نكد نصل حتى قال لي الدليل هنا كانت تقوم مدينة الزهراء - في هذا المنحدر من الارض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب .

ورأيتني في أرض خلاء ..

وفي ظني انني سأرى معالم « فرساي » الاندلس وقصرها العجيب ، وخاب هذا الظن ، وأخذت اتساءل ، وان كان الجواب غير خاف عني :

اين جامعها الذي فرشت ارضه بالرخام الحجري ؟ اين منبره البديع الزخرف ومقصورته العجيبة الصنعة ؟ اين البركة العظيمة وأسدها المذهب وقد انبثت من عينيه جوهرتان لامعتان ؟

واين القصر الذي اتفق جميع من زاره من ملوك وسفراء وامراء وعلماء

على أنه لا مثيل له بين أفخم القصور .

لقد كان الناصر - كما يقول ابن اصبغ الهمداني - : كلفنا بمسارة الارض واقامة معالمها واستنباط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعز السلطان وعلو الهمة فأففى به الاغريق في ذلك الى ان ابنتى مدينة الزهراء التي وصفها الشريف الادريسي بقوله :

« مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الاعلى يوازي على الجزء الاعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الثاني بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع .. »

ويقول المؤرخ أبو مروان بن جنان صاحب التاريخ الكبير في اخصار

الاندلس :

« ان مباني الزهراء اشتملت على ٤٣١٦ سارية بين كبيرة وصغيرة ، حاملة محمولة ، منها ما جلب من مدينة روما ، ومنها ما أهدها صاحب القسطنطينية وأن مصارع ابوابها صفارها وكبارها تنيف على خمسة عشر الف باب ، وكلها ملبسة بالحندي والنحاس المموه . وقد جلب لها الرمر الابيض والوردي والاخضر من مختلف البلدان كما جلب الحوض المنقوش المذهب ، الغريب الشكل ، الغالي الثمن ، والحوض الصغير المنقوش بتماثيل الانسان - جلبا من القسطنطينية ، وقد نصب هذا الحوض الصغير في غرفة المنامة وجعل عليه اثني عشر تماثلاً من الذهب الاحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، صورة أسد الى جانبه غزال ، الى جانبه تمساح ، يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر - كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من افواهها .. »

وكتب التاريخ تسهب في الوصف حتى ليخرج القارى وفي ذهنه صورة ترمز الى أن الزهراء كانت في عهد الناصر اجمل من « فرساي » باريس وأجمل من قصرها واعظم ...

لقد أخذت التجول في هذه الارض الخلاء لعلني أرى طلال هذه المدينة

المجيبة وآثارها الدالة على عظمة العرب خلال حكمهم فلم أر شيئاً .. حتى الاطلاع
قد اندثرت ..

وقد عدت اندب الماضي واتساءل :

اين الزهراء ؟

اين قصرها العجيب ؟

اين جامعها وبركتها وحدائقها وقصورها ؟

لم يبق من كل ذلك غير ارض تمصف في ساحتها الرياح ..

وااسفاه !



جامع قرطبة (الجناح الشرقي)

العودة الى مدينتي

رجعت الى مدريد لأقضي بضعة ايام قبل عودتي الى أرض الوطن .
وقد مررنا بغابات ظليلة من اشجار الزيتون قال لنا الدليل ان في هذه
المنطقة اربعين مليون شجرة زيتون ..
انه رقم مذهل !
ولا يهمني صحته بقدر ما خلبنى منظره .. فحيثما التفت الانسان لا يقع نظره
الا على غابات واحراج كثيفة من اشجار الزيتون .
وصلت الى مدريد بعد أن طوّقت في مدن الاندلس الكبرى
والصغرى ، وقضيت بمض اياماتي منها ، فمشت لحظات حيّة مع التاريخ
النفى .
والاندلس ، ولديها وتاريخها المليء بالاحداث الكبرى — لهذا التاريخ
ذكرات حلوة مرة لن يمحي اثرها من نفوسنا مهما تقادم عليها الزمن
فقد ترك اديباؤها وشعراؤها ومؤرخوها ومتصوفوها وفلاسفتها من الآثار
التي تعتبر زهرات عبقة في حديقة التراث الانساني ، فلا نكاد نرجع اليها حتى
نقرأ آيات مشرقات من أثر العقل الحي — العقل العربي المنطلق الذي
انتج فأبدع .

وصلت الى مدريد متعباً ..
وأويت الى غرفتي في فندق بلازا .
ولم أكد أصل حتى اتصلت بصديقي الاديب الدكتور مصطفى البارودي
الذي تكرم مشكوراً فرسم لي خطوط هذه الرحلة .
ومن حسن حظي أن التقى بهذا الصديق في مدريد ، وكان منتدباً من
الجامعة السورية لدراسة التنظيمات الادارية والحقوق الادارية - دراسة اساليب
تدريسها نظرياً في الجامعات ، وعملياً في المؤسسات .
وقد قضى فترة طويلة في مدريد استطاع خلالها أن يوثق صداقات
متينة مع كبار رجال الفكر والحقوق والادارة ، والقى في جامعة مدريد عدة
محاضرات عن التنظيم الاداري في سورية ، حاضره ومستقبله ، كما القى عدة
محاضرات في كلية العلوم السياسية كان لها وقعها الكبير في الوسط الجامعي -
أقول من حسن حظي ان التقى به في مدريد ، فكان نعم الرفيق الاديب والمصديق
الاريب .

نعم ، لم أكد اتصل به حتى تفضل مشكوراً وجاءني الى الفندق يستمع
مني أفايص هذه الرحلة ، ثم تكرم فنظم لي برنامجاً لزيارة معاهد مدريد ومتاحفها
وكاتدرائياتها . معالمها التاريخية ، احياءها الشعبية والارسطقراطية ..
ولقد طوفت بجميع هذه المعالم البارزة تطواف من سيقضي اياماً قلائل ..
ولا عليّ ان أقول تطواف شركة كوك بالسواح الاميركيين !
كنت أقضي ساعات انهار في زيارة المعاهد والمتاحف والكاتدرائيات ،
والليل في مغانيها المشعة ، وقد تطول السهرة حتى الثالثة بعد منتصف الليل فأعود
الى الفندق وأنا شبه نشوان ، لا احسّ بأي اثر للتعب ولا لمضض السهر ..
فمغريات مدريد ، وطرف الفن ، والحياة البهيجة المرححة ، تعطلي السائح
قوة ، وتمنحه الصحة والنشاط .
وفي الامسيات كنت اتجول بصحبة بعض الرفاق في شارع الكاستالينا

الجبل - هذا الشارع الطويل الذي يبلغ عرضه مائة متر ويرتفع كل مسدان من مبانيه تمثال ، وحوض ينبعث الماء الرقاق كما قامت على جانبيه ممرات خضراء ، الى مقامٍ مترفة يحلو لك أن تقضي فترات فيها فتشعر كأنك في مقاهي الشازله ليزه في باريس ..

ومن كاستالينا الى سيوانو الى شارع الجنرال مسولا .. فحيثما سرت تجد الواناً من الحياة البهيجة التي تصور مرحر الاسبانين ومحبتهن العميقة للحياة ..

فاذا انتقلت الى الكالا أي القلعة وجدت تقسك في جور خليط من زمر البشر ، فانتانت يمرحن ضاحكات ، وروين القصص والحكايات ، غاديات رائحات و الدوانجوانيون ، في إثرهن بنزون ويرمزون ويلزون ويقهقون فترن الضحكات والقهقهات وكأنك في مشهد سينائي حي .

ولا أعالي حين أقول ان الانسان يشهد في هذا الشارع وفي شارع الكاستالينا المترف - يرى مشاهد سينائية حية شبيهة بما يراه احياناً في شازله ليزه باريس !

وتستمر الحياة في عنفها وبهجتها حتى ساعة متأخرة من الليل .
قال لي صديقي الدكتور مؤنس الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في مدريد :
« أهل مدريد مشهورون في العالم كله ، لهم مزاج خاص لا يشاركهم فيه أحد من أهل العواصم ، ففهم انس لطيف ، ولا ينزل ببلدهم غريب الانسي غربته بعد ساعات . فهم يحدثونك في غير كلفة ، ويقبلون عليك من غير إئثار وفيهم مرحر لطيف هادئ ، يحبون الاستماع البريء ، ويرون ان الانسان في الدنيا خلق ليعيش لا ليشقى ، ولذا فهم لا يفادرون فراشهم الا في التاسعة صباحاً ويفطرون في العاشرة ، ويتعدون في الثانية بعد الظهر ، ويتعشون في العاشرة مساءً ، ويذهبون الى الخارج أو دور السينما في الحادية عشرة ، وقد يخرجون في الواحدة فيميلون الى المقهى حتى مطلع الفجر .. »

وهذه الحياة قد لا يستطيعها احدنا، وقد اضطرت ان اسهر ليلتين شعرت
خلالهما بالتعب والضنى ، ولا عليّ ، اذا اعترفت انهما سهرتان تركتا في نفسي أثراً
لا أزال اترنم بحلاوتهما الى الآن .

- ٢ -

قبيل سفري ، تفضل الدكتور البارودي فأقام على شرفي حفلة عشاء دعا
اليها صفوة من اكابر رجال الفكر في اسبانيا بينهم وكيل وزارة المعارف الاستاذ
ريو فيلانوا وعميد كلية الحقوق وعميد كلية العلوم السياسية وأبو الحقوق الادارية
في اسبانيا الاستاذ جور دانا دي بوزاس وغيرهم من الاساتذة الجامعيين الذين عمل
معهم في حقل العلوم الادارية .

كانت المأدبة انيقة تخللها احاديث عن سورية في عهدها الجديد ، وعن صلات
العرب باسبانيا ، وعهود بني أمية الزاهر في الاندلس وما تركوه من آثار ترمز
الى حضارتهم وتكشف لهم الكثير من تاريخهم الغامض . وكان الى جاني على
المائدة السنيور فيلانوا وكيل وزارة المعارف ، واذا به يتحدث طويلاً عن
أنفة العرب وعظمتهم ويقول مباحياً انه من أصل عربي وعيئت الى الامويين
بنسب عريق .

وافهم فيما بعد أن الاسر الارستقراطية التي تتميز باصالتها ونبالتها تستز
بالأرومة العربية وترى في ذلك موضع فخر واعتزاز .

لقد كان لهذه الحفلة التي تبودلت فيها الخطب والانتخاب تعزيزاً للصداقة
السورية الاسبانية كان لها أثرها في نفوس جميع من حضرها ، ولا ازيد حين أقول
أن الدكتور البارودي حين إقامته القصيرة في مدريد تلقى صداقات طيبة ، واعطى
صورة حية عن الشباب الجامعي المثقف .

- ٣ -

الى الاسكوريال

كان لا بد وأنا في مدريد .. من زيارة الاسكوريال - زيارة المكتبة التي تضم نفائس المخطوطات العربية والتي طبقت شهرتها الآفاق .
وكان من حسن حظي أيضاً ان التقى بصديقي البجائي الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد الاسلامي في مدريد - هذا المعهد الذي اسسه الدكتور طه حسين يوم كان وزيراً للمعارف ليقوم بالدراسات الاسلامية في اسبانيا على نطاق واسع فأدى أعظم الخدمات وما زال يؤدي رسالته العلمية بنشر الكثير من المخطوطات والدراسات نشرأ علمياً مركزاً - أقول لم أكد ازوره واحدته عن رغبتى بزيارة مكتبة الاسكوريال حتى تفضل مشكوراً بمرافقتي .
كانت رفقة سعيدة سبقتها حفاوة بالغة ومأدبة سخية في مطعم « اسباني الطابع »

• • •

في التاسعة صباحاً تركنا مدريد بالقطار السريع الى الاسكوريال وهي تبعد قرابة الخمسين كيلو متراً ، فوصلنا اليها في العاشرة والنصف تقريباً ..
والاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخم يضم ديراً وكنيسة ، وقصراً ومدفناً كان لملوك الاسبان ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربي جبل وادي الرملة .

وأنت للبناء خمسة عشر مدخلا ، وسبعة أبراج ، وما لا يقل عن اثني عشر الفاً بين نافذة وباب . شيده عاهل الاسبان فيليب الثاني وفاء لندسه وندره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى في تشييده واحكامه احدى وعشرين سنة . وانفق في ذلك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فجاء من أضخم واعظم ما بنى الاسبان ، وهو من قبيل المنشآت الشخصية الهائلة التي لا يتيسر القيام بها إلا في ازمان الاستبداد والجبروت . فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك

وكثيراً من مباني المصريين القدماء (١) ...

وقبل ان ندخل المكتبة جلنا جولة عامة في ايهاء القصر الفخم ثم الدير
فالكنيسة فمدافن الملوك وقد رجعت الى المكتبة اقرأ فهرسها وانقّب عن نواذر
المخطوطات واذ بصديقي الدكتور مؤنس يقول لي مهلاً : فقد اصبحت مخطوطات
الاسكوريال اسطورة من الاساطير ، فهي في عقيدة بعضهم عشرات الآلاف وقد
يزيد الآخر هذا الرقم وقد ينقصه ، فالواقع ، أن عددها لا يزيد على الألفين ، هذا
من حيث الكم اما من حيث الكيف فان عدد المخطوطات النادرة اقل من القليل ،
وأن المخطوطات الصالحة للنشر لا تزيد على / ٣٥٠ /

والواقع : أن المخطوطات العربية في الاسكوريال حتى أواسط القرن
السابع عشر كانت تبلغ عدة آلاف ، وكانت انفس مجموعة من انواعها ، ولكن
حريقاً شب في الاسكوريال سنة ١٦٧١ التهم ثلاثة ارباع هذا الكنز الفريد .
وكانت الحكومة الاسبانية الى ذلك الحين تحرص كل الحرص على إخفاء
المخطوطات العربية عن نظر كل باحث ومتطلع ، وكان الكتاب الاسبان انفسهم
متأثرين بنزعة الدين والجنسية يتجنبون التنقيب في هذه المصادر النفسية السقي
تلقي ضوءاً كبيراً على تاريخ اسبانيا وحضارتها وثقافتها ايام الدولة الاسلامية ،
ولا يرجعون في ذلك القسم من تاريخ بلادهم إلا الى المصادر القومية ، ومن
ثم كانت كتاباتهم تفيض باسباب التحامل والتشيع ، ولم تفق الحكومة الاسبانية
من سباتها إلا بعد نكبة سنة ١٦٧١ عدة طويلة ، فانتدب العلامة المستشرق
« كازيري » ليضع فهرساً للبقية الباقية من المخطوطات العربية وعددها الف وثمانمائة
وخمسون ، وكانت ثمرة جهود العلامة كازيري مدى أعوام طويلة معجزة الضخم
المسمى « المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال »

ومن أثنى ما في الاسكوريال مخطوطات عربية ترجع الى سنة ١٠٠٩ م
كتبت على ورق القطن وعشر على أخرى ترجع الى سنة ١١٠٦ م كتبت على

(١) البادى : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ص ٢٠٥

ورق الكتان مما يشهد لعرب الاندلس بفضل السبق والبراعة في هذه الصناعة ،
ثم على طائفة من المخطوطات التاريخية تدل على ان العرب كانوا اول من استعمل
الديناميت في الحرب وغير ذلك مما يلقي كثيراً من الضياء على حقائق لبثت قروناً
تحتضر في ظلمات الاسكوريال (١) ..

ومخطوطات الاسكوريال هي بقايا الكتب الاندلسية القديمة التي سلمت
مما أصاب آثار مسلمي الاندلس من الضياع والتلف في حروبهم مع الاسبان ،
وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثاني وخلفاؤه من بعده واودعوها
ناحية الاسكوريال .. ثم مكتبة الاشراف الحسينيين من سلاطين مراکش
(٩٥١) (١٠٦٩) هـ وذلك انه في اوائل القرن الحادي عشر الهجري وقعت فتنة
بين مولاي زيدان سلطان مراکش (١٠١٢ - ١٠٣٨) وبين اخيه ابي فارس
الناظر عليه ، واضطر مولاي زيدان الى التحوّل عن مراکش - فاستأجر سفينة
فرنسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثغور المغرب الأقصى الى اغادير ،
فلما اقترب من اغادير حصل خلاف بينه وبين ربان السفينة على مبلغ الاجرة
المنتهقة فما كان من الربان الا أن انسحب بالكتب تحت جنح الليل يؤم
مرسيليا ، فلما كان بعرض الطريق عرضت له سفينة اسبانية غصبته المكتبة
وانطلقت بها الى اسبانيا ، وكان خاتمة مطاف تلك الكتب أن اودعت هي ايضاً
دير الاسكوريال (٢) .

• • •

قال صديقي الدكتور مؤنس بعد أن رأي غائصاً قلب صفحات بعض
تلك المخطوطات التي كتبها ايد مباركة اخلصت للعلم - قال : أن تراثنا في الاندلس
ليس هذه المخطوطات فحسب بل في الوثائق المحفوظة في الاديرة ، وقد لا تعلم ان
اقبية ديري شلمنغه Salamanca وسقويه Segovia ما يقرب من عشرة آلاف
وثيقة باللغتين العربية والاسبانية . وهي الرسائل السياسية التي كان يتبادلها الملوك

(١) مجلة الحديث عدد ٣ السنة ٨ عنان

(٢) صور وبحوث من التاريخ الاسلامي : العبادي ص ٢٠٦

والامراء منذ الفتح الى ان جلا العرب عن اسبانيا ، ولاشك ان نشر هذه الرسائل سيلقي اضواء جديدة على تاريخ العرب في تلك الفترات .
وقال : ان الرهبان محتفظون بهذه الوثائق كأثمن الكنوز والمخلفات ، ولا يسمحون لأحد بالاطلاع عليها الا لمن يثقون به .
ومراجعتها وفك طلاسمها ونشرها يحتاج الى سنوات ، والى جهود ، والى صبر علماء افاض وقفوا أنفسهم لكتابة التاريخ الاندلسي .
وحين تضع الحكومة الاسبانية يدها على هذه الوثائق وتمكّن الهيئات العلمية المعنية بكتابة التاريخ دراسة هذه الوثائق ونشرها فسنرى صفحات جديدة من تاريخ العلاقات بين العرب والاسبان .
وانا لارجو أن تتحقق هذه الامنية العلمية قريباً ، وما ذلك بعزيز على الحكومة الاسبانية التي أخذت تولي الآثار العربية بالغ اهتمامها وتعنى بالخطوط العربية التي تلقى الاضواء على تاريخ الاسبانيين خلال الفترات التي حكم فيها العرب الاندلس .

- ٤ -

وعدت الى مدريد .
ثم عدت الى الوطن وفي نفسي حنين لعودة ثانية الى الاندلس ، الى اسبانيا التي وصفها قائد من قادة الجيش العربي الى الخليفة الاموي بقوله :
شامية في طيها وهوائها ، عينية في اعتدالها واستواءها ، هندية في عطارها وذكائها ، اهوازية في عظم جبالها ، صينية في معادن جواهرها ، عدنية في منافع سواحلها .
فالواقع ، ان العرب تركوا الكثير من آثار عبقرتهم في اسبانيا .. فحين فتحوها كانوا يحملون في اطواء نفوسهم رسالة - رسالة حب وخير وتمدين .
يقول غوستاف لوبون :
لم يكبد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها فاستطاعوا في اقل من قرون ان يحيوا ميت الاراضي ويسمروا خرب المدن وقيموا



برج الجبرالذه « برج لعبة الهواء في اشيلية

فخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى .
ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان
واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبا زمنًا طويلاً.
وقال :

وقد أحسن العرب سياسة سكان إسبانية كما أحسنها أهل سورية ومصر
فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحق المقاضاة إلى قضاء منهم (١)
أن روح التسامح التي رافقت سياسة الحكم في إسبانيا أذهلت الكثيرين
من المؤرخين ، ولا سيما حين يقارنون بين معاملتهم للإسبانيين حين الفتح ومعاملة
الإسبانيين للمسلمين حين أجلوا عن أرض الأندلس .
وأهونها نصيحة كريدتال طليطلة التقى الذي كان رئيساً لها كم التفتيش
والذي اتقى بقطع رؤوس جميع من لم ينتصر من العرب رجالاً ونساء ،
شيوخاً وولداً ..

يقول غوستاف لوبون :

وقد ظن رئيس الاساقفة الاسباني اكزيمينيس انه بحرقه مؤخرًا ما
قدر على جمعه من كتب اعداء دينه العرب ، أي ثمانين ألف كتاب ، قد يحا ذكرهم
من صفحات التاريخ إلى الأبد ، فما دري أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد
إسبانية يكفي لتخليد أسمهم إلى الأبد (٢) .
والواقع ، أن الأمة العربية التي لعبت دورها الخطير في تاريخ الحضارة
البشرية لا في الأندلس فسحب بل في كل بقعة من بقاع الدنيا ، وكان لهذه الحضارة
أثرها الفعال في أوروبا التي كان أهلها يتخبطون في عمية سادرة من الجهالة والظلمات .
أن الأمة العربية ، وقد نفقت عنها غبار الخمول وأخذت تلم شمسها وتوحد كلمتها
جديرة أن تعاود بناء نفسها من جديد لتستطيع أن تحمل رسالة الحب والإيمان .
فتاريخنا ، بالرغم مما فيه من فجوات ، قد ترك في تاريخ الحضارة صفحات مشرقة

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢٩ - ٣٣٥

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٩

اشار اليها اكثر من مؤرخ اوروبي منصف وحسي الاماع الي بمضها .
يقول جوليفه كستلو Colivi Casielai في كتابه قانون التارسخ
La loi de l'hisiotire : « وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون على مشعل
النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك
والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا
بالمعنى المعروف بل بما أحرزوا من اساليب العلم التي استخدموها بقرينة وقادة
للفاية . وكانت المدينة المرية قصيرة العمر ، الا انها باهرة الاثر وليس لنا إلا ابداء
الاسف على اضمحلالها .

لقد كانت المملكة المرية من السمة والانتشار بحيث يتمذر بقاؤها، وسرعان
ما تمزقت بتأثير المنافسات السياسية والدينية .
وبما قال :

ان اوروبا لمدينة الحضارة المرية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر
الى القرن الرابع عشر . وعنها أخذت الفكرة الفلسفية والعلمية التي سرت اليها
سريانا بليثا ناقصا في القرون الوسطى ، وان اوروبا لتجلى لنا منحة جاهلة امام
المدنية المرية وأمام العلم العربي والآداب والفنون المرية ، واوروبا تدين بالهواء
النافع الذي تمت به في تلك المصور للافكار المرية ، وقد انقضت اربعة قرون
ولا حضارة فيها غير الحضارة المرية ، وعلماءها هم حملة لوائها الخفاق

...

وقال لويجي رينالدي من علماء ايطاليا وهو يتحدث عن الامة المرية واثرها
في ايطاليا واسباليا :

فامة هذه مدينتها ، وتلك آثارها ومفاخرها ، جدير بنا ، واجب علينا ان
نحفظ لها تلك اليد التي قدمتها اليها واسلفتها لنا ، ولست أدري لماذا لا نسمع كلمة
اعجاب بالشعب العربي العظيم الذي ترك في طريق المدنية آثارا عديدة ، والذي
حمل معه اعظم الموهبات واجل الخدم للنوع الانساني ، ولا يخل على العرب باعطائهم
المقام اللائق بهم ، بلزاهم المنزلة التي استحقوها بمجدارة الاكل جاهل للتاريخ .

وقد خطت ايديهم صحائف يضاء فاخرة يحب على كل انسان ان يعجبهم من اجلها .. ويحزني ، لعمر الحق ، كما يحزن غيري عن ينصفون ، ان يكون بيتنا نحن الاوروبيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب ، وحسبانهم من امة ادنى من امهم ، وان نرى كلمة عربي عندنا تدل على معنى غير المتدين ، وهذا بلا شك افتراء وفكران للجميل ، فان هذا الشعب وان سقط من شاهق مجده ونزل عن المنزلة العظيمة التي كان فيها ، لا يزال يحفظ صفاته العجيبة وذكائه النادر ، مما يتحلى به كل متعلم راق ، وانا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم وقسوة ملاحظتهم للطبيعة ، وسرعة خاطرهم ، وها نحن اولاء لم نصل الى ما وصلنا اليه من المعرفة الا بفضلهم ، فلذلك نشعر بمطف عظيم على ابناء الصحراء ، ولا نزال نذكر لهم بالشكر والامتنان اياديهم البيضاء علينا في الماضي ، ولا يسمنا في الحاضر إلا ان غد اليهم ايدينا كي ينهضوا ويتبؤوا المكان اللائق بهم تحت الشمس حتى يشتركوا معنا في استنثار تلك المدينة التي كانوا لها موجدين وعلى شأنها عاملين .

الفهرس

الصفحة

٥	في الربوع الانداسية
١٠	الاندلس
١٤	في الطريق الى غرناطة
١٨	ليلة مؤرقة
٢٤	بنو الأحمر
٤١	في قصر الحمراء
٥٥	وداع
٥٨	من غرناطة الى مالقة
٦٣	الى قادس
٧١	الخطاب الذي غير وجه التاريخ
٨٧	اشبيلية
٨٠	من قادس الى اشبيلية - عروس المدن الاسبانية
٩٣	الى قرطبة
١٠٩	العودة الى مدريد
١١٣	الى الاسكوريال

